علم البديع

وموقف السكاكي ومدرسته منه

دكتور

عبد المنعم السيد الشحات رزق

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

كلية الدراسات – دمياط الجديدة

جامعة الأزهر

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيّد الأولين والآخرين، مُعَلِم الناس الخير ، صاحب البيان العَالي ، خيرِ من تحدث العربية،محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ....

وبعد

فمنذ كنت طالبا في المرحلة الجامعية ويتردد أمامي في كتب البلاغيين أن هناك فرقا جوهريا بين علم البديع قبل السكاكي ، وبينه عند السكاكي ومدرسته .

فلقد حاول الكثيرون إقناعي أنا وزملائي أن البديع كان علما يقف جنبا إلى جنب مع علم المعاني والبيان قبل مجيء السكاكي ، الذي كان سببا في القضاء على هذا العلم ،وجعله بمثابة العرض الذي لا يعول عليه ، والمحسن الذي لا قيمة له إلا التزيين .

وحجتهم في ذلك : أن السكاكي ومن بعده وضعوا علم البديع في ذيل البلاغة ، كما أنه لم يدرس البديع كما درس علم المعاني والبيان ، ولم يُفصّل القول فيه كما فصل القول فيهما.

وظلت هذه الأفكار تلازمني منذ وقت ليس بالقصير ، إلى أن عكفت على كتاب السكاكي وشروحه ، ومن جاء بعده من أصحاب الشروح والحواشي والتقارير، وداومت على الانقطاع للمطالعة والبحث في هذه المخطوطات، وموازنتها بما كتبه الشيخ عبد القاهر

وابن سنان ، ومن سبقهما ، **ومحاولة الإجابة عن أسئلة يطرحها هذا البحث** :

- ما الفرق بين علم البديع عند السكاكي ، وعند من سبقه ؟
- وهل حقا فصل السكاكي علم البديع عن علم المعاني والبيان، حيث لم يعترف بالبديع – علما – بدليل تذيله لمباحث البلاغة ؟
- وما السر في عدم حصر البديع في أبوابه، وتفصيل الكلام عنه، كما فعل مع أخويه ؟

مشكلة البحث:

ولعل من أكبر المشاكل التي تواجه البحث ما قرّ في يقين الباحثين من أن البديع كالمعاني والبيان وأن منزلته لم تتأثر سوى بمجيء السكاكي الذي جنى عليه بإهماله وتذيله للبلاغة ، وهذا ما لم يحدث ولم يكن له أساس من الصحة – على ما سيأتي في مكانه من البحث .

حدود البحث:

وأود أنبه إلى أننا لسنا بصدد التأريخ لعلم البديع، أوْ تتبع نشأته، أوْ دراسة مسائله وقضاياه، فليس هذا مما ننوي الحديث عنه أو دراسته.

كما أنه ليس من خطتنا تحليل شواهد الألوان البديعية ، وبيان قيمتها في الدرس البلاغي؛ لأن هذه القضايا أُلّفت حولها الكتب ، وكتبت فيها البحوث ، ومن العبث أن نكرر ما سطّره غيرنا ، وأن نردد ما فصّله من هو أدّق وأفضل منا ، دونما داع من وراء معاودة البحث في ذلك .

= لكنا فقط نُجيب على الأسئلة التي يطرحها البحث .

ولذا فقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يكون في مقدمة ،وثلاثة فصول ،وخاتمة :

* جاءت المقدمة لتكشف عن الغرض من الموضوع ، وكيفية تناوله
* وفي الفصل الأول: تحدثت فيه عن علم البديع قبل السكاكي
* والفصل الثاني : عن موقف السكاكي من علم البديع
* والفصل الثالث :عن علم البديع بعد السكاكي.
* وجاءت الخاتمة: لتوضح النتائج التي توصل إليها البحث ،والتوصيات المقترحة.

= على أنه لا مفر من التنبيه على أمر في غاية الأهمية ، وهو أني لم أحاول الكتابة في هذا الموضوع ، وتحمل الصعاب والمشقة في جمع الشروح والحواشي التي

تطرقت للحديث عن علم البديع إلا بعد قراءة متأنية لمفتاح السكاكي ، وما دار حوله من نقد ، وما كتب حوله من بحوث ومؤلفات .

= كما أنه ليس الغرض من تسطير هذه الصفحات النقد لأحد ، أو التطاول عليه ،أو الغمز به ، كيف وأنا أعلم قيمة ما كُتب حول فن البلاغة ، وقدْر من كتبوا ، إذ هم أساتذة ، وأنا الفقير في هذا الفن ، لكني تعلمت منهم الجرأة والإقدام ، ومحاولة الإتيان بالجديد ، وعدم التكرار، دون الإساءة لأحد ، أو التطاول عليه.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

دكتور
عبد المنعم السيد الشحات رزق
دمياط الجديدة – جامعة الأزهر

الفصل الأول

علم البديع قبل السكاكي

تقديم لا مفر منه :

لسنا نعني بهذا الفصل الوقوف طويلا أمام نشأة علم البديع ، وتطور مراحله قبل السكاكي ، وما أضافه اللاحق للسابق ، وموقفهم من الاستشهاد له= وإنما أردنا أن نجيب على سؤال مهم:

ما مفهوم البديع قبل السكاكي ؟وهل هناك ما يسمى بـ (علم البديع) وقتذاك ؟

ولعل هذا التساؤل يجعلنا نختار شخصية بلاغية،أو أكثر لنستخلص من مؤلفها مفهوم البديع آنذاك، ويكون تناولنا لها على سبيل الإيجاز.

وقد اخترنا ستة كتب:

١ – كتاب(البديع)لابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ.

٢ – كتاب(نقد الشعر) لقدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧هـ.

٣– كتاب(الصناعتين)لأبى هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥هـ .

٤ – كتاب(العمدة)لابن رشيق المتوفى سنة ٤٦٣هـ.

٥ – كتاب(سر الفصاحة) لابن سنان الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦هـ.

كتاب(أسرار البلاغة) للشيخ عبد القاهر المتوفى سنة ٤٧١هـ.

على أنه لا ينبغي أن يفهم من تعرضنا لهذه الكتب: تفصيل الحديث عنها وتحليل ما فيها من ألوان وفنون بلاغية، فليس هذا مدار القصد من بحثنا ، إذا أن هذه الكتب قد تناولها غيرنا بالدارسة والنقد، لكن تناولنا لها سيكون في إيجاز لنضع أيدينا على المقصود بالبديع وتطوره فحسب، دون تفصيل القول فيه.

-١-
ابن المعتز وبديع المحدثين

ما السر في تقسيم ابن المعتز أبواب كتابه ؟

لسنا هنا بصدد الحديث عن ابن المعتز وجهوده وآرائه المثبوثة في ثنايا كتابه، فنحن على دراية أن الرجل قد قتل بحثا ، لكنا فقط أردنا أن نجيب عن السؤال الذي ربما لم يتطرق إليه أحد، إلا في سطر أو سطرين.

ونحن لم نرد لماذا قسم كتابه إلى قسمين؟ وإنما أردنا: لماذا وزع الفنون البديعية عنده على القسمين هكذا؟!.

أو بتعبير أدق: لماذا قسم كتابه إلى: ١- البديع، وهى: الاستعارة ، التجنيس ، المطابقة، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها، والمذهب الكلامي.

٢- المحاسن : وهى ثلاثة عشر نوعا ، ذكرها في كتابه!

فلم اختص البديع بهذه الخمسة التي هي عنده غير قابلة للنماء والزيادة ، وأما المحاسن، فقد قال عنها: ومحاسنها كثيرة، لا ينبغي للعالم أن يدعى الإحاطة بها"(١).

يقول ابن المعتز في أول كتابه:

"قد قدمنا فى أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكلام الصحابة والأعراب، وغيرهم، وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون (البديع) ليعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثر في أشعارهم ، فعرف فى زمانهم ، حتى سمى بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه"(٢).

هذا الكلام يفهم منه أحد أمرين:

١- (الذم)، ويكون معنى ذلك: نفى صفة التجديد التي ادعاها بشار ومسلم ، وغيرهم، وتباهوا بها، وهى: أن البديع مقصور عليهم، وأنه مستحدث لم يوجد إلا فى أشعارهم وامتازوا به، وفضلوا عن القدماء.

---

(١) البديع- ابن المعتز ص ١٥٢ دار الجليل ت د/محمد عبد المنعم خفاجي.

(٢) البديع ص٧٣، ٧٤ .

وهذا الرأي يكاد يجمع عليه البلاغيون، فلا أكاد أقرأ كتابا إلا وأجدهم يفهمون كلام ابن المعتز على ظاهره، وأن الرجل أراد رد ما ادعاه هؤلاء الشعراء.

٢- وهناك احتمال آخر ربما لم يتطرق أحد إليه، وهو (المدح) بمعنى أن يكون البديع كثر فى أشعار هؤلاء حتى اتهموا باختلاقهم فنونا لم يعهدها العرب، فدار حولهم نقد كثير وجدل طويل ، فراح ابن المعتز يرد هذا النقد، ويدافع عنه بأن ما استحدثه هؤلاء الشعراء ليس بغريب ولا بعيد عن لغة العرب، بل هو موجود فى القرآن والحديث، وشعر القدماء ونثرهم.

ويؤيد هذا الرأي ويرجحه عدة أمور:

أولا: كيف يرد ابن المعتز ما قاله بشار ومسلم وأبو تمام- وهو منهم- إذ كيف يحارب أبناء عصره ويتهمهم بالجهل.

ثانيا: لو صح ذلك – وهو غير صحيح – فكيف يستشهد بأبيات له، كما هو مذكور فى (المذهب الكلامي).

ثالثا: ليس هؤلاء الشعراء بهذه الغفلة حتى يزعموا أن ما ذكروه جديدا، وأنه ليس فى القرآن ولا فى كلام رسول الله منه شيء.

هذا ما يمكن قوله فى تفسير كلام ابن المعتز السابق.

أما لماذا حصر البديع فى خمسة أبواب تلاهما بمحاسن الكلام والشعر؟!

فإن أستاذنا الدكتور طبانة يورد لذلك تفسيرا وجيها، يقول سيادته:

"وهنا يتبادر إلى الخاطر سؤال عن البديع ومحاسن الكلام، وعن الفرق بينهما، وإذا لم يكن هنالك فرق، فما العلة فى فصل الفنون الخمسة الأولى وتخصيصها باسم البديع، وإطلاق محاسن الكلام على الثلاثة عشر فنا التي تليها؟

قد يقال: إن فنون البديع أكثر دورانا فى الأدب من محاسن الكلام، وأقدم استعمالا واستخراجا.

وتلك علة غير مسلمة، فإن فى هذا البديع فنونا قد تقل أهمية عند الأدباء من بعض فنون محاسن الكلام، فليس التجنيس ، ولا رد إعجاز الكلام على ما تقدمها، ولا المذهب الكلامي بأهم عندهم من التشبيه أو الكناية.

ثم يقول سيادته: إذن فلابد من البحث عن علة أخرى فى فصلة بين البديع وما سماه (محاسن الكلام) وسنجد هذه العلة فى أن ابن المعتز لم يؤلف كتابه وقت واحد، بل ألفه على مرحلتين ، وقد أحصى فى المرحلة الأولى الفنون الخمسة المذكورة فى البديع... وبعد دراسة هذه الفنون وقف عندها وأنهى كتابه، وكتب خاتمته التي اعتاد أكثر المؤلفين أن ينهوا بها كتابتهم، وهى:

"ألفته سنة أربع وسبعين ومائتين ، وأول من نسخه منى على بن هارون بن أبى يحى بن أبى المنصور المنجم" ولعل ابن المعتز سمع بعد ذلك من بعض النقاد والمتتبعين اعتراضا على قصر البديع على الفنون الخمسة الأولى، وأنهم رأوا البديع أكثر مما ذكر فأقرهم على دعواهم، وكتب بقية المحسنات وضمها إلى الفنون الخمسة لينفى عن نفسه مظنة الجهل بتلك البقية"(١).

ولعل ممن ساروا على درب الدكتور طبانة وأيدوه الدكتور عبد الواحد علام حين قال:

"أما ما أسماه (محاسن الكلام) فيبدو أنها لم تكن من بين موضوعات كتابه حين فكر فيه وبدأه ، إنما فكر فيها بعد أن أنهى حديثه عن الفنون الخمسة التي أطلق عليها مصطلح (البديع) ويقوى ذلك عدة أمور:

لعل فى مقدمتها أن ابن المعتز بعد أن أنهى حديثه عن فنون البديع ذكر ما جرى عليه المؤلفون من أن يكون آخر ما يذكرونه فى مؤلفاتهم هو النص على السنة التي فرغوا فيها من التأليف ومن قام بعملية النسخ.

كما يقوى ذلك مدى عناية ابن المعتز بفنون البديع الخمسة إذا ما قيس بعنايته بمحاسن الكلام .....

وآخر ما نقدمه دليلا على ما نحن بصدده أن ابن المعتز لم يشر مجرد إشارة– إلى محاسن الكلام هذه وهو يقدم بين يدي كتابه خطته التي يسير عليها..."(٢).

---

(١) البيان العربي- دراسة فى تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى- د/بدوى طبانة- ص ١١٩ وما بعدها – ط٧ دار المنارة- ط ١٩٨٨م.

(٢) البديع المصطلح القيمة د/عبد الواحد علام ص ٢٩ دار الكتاب الجامعي ط٢، ١٩٩٦م.

التعليق :

ومع وجاهة ما قاله الأستاذان إلا أن ما قالاه لا يعد دليلا، ولا يفسر عمل ابن المعتز وتقسيمه كتابه إلى: (بديع ومحاسن)، ومع تقديرنا لما قالاه، لكن إذا صح ذلك فلماذا لم يجعل من البديع التشبيه والكناية- مثلا-.

فلو كان ابن المعتز قد ألف كتابه على مرحلتين ، فلماذا لم يضف أكثر أنواع البديع الأخرى، والتي ذكرها فى (المحاسن) .

وإذا كان ابن المعتز كما يقول أستاذنا الدكتور طبانة- وهو العالم- بعد تأليفه للمرحلة الأولى وهى فنون البديع سمع اعتراضا من بعض النقاد، من بعض النقاد، فأضاف هذه المحاسن، أقول: إذا كان ذلك فلم ذكر هذه الخمسة بعينها من أول وهلة؟!

وهل ما قاله سيادته يفسر اختيار ابن المعتز لهذه الخمسة ؟! وهل اهتمام ابن المعتز بهذه الفنون الخمسة بالقياس إلى غيرها من المحاسن يفسر لنا سبب اختياره لما أطلق عليه البديع؟

وفى قول الدكتور عبد الواحد: "ومما يقوى ذلك أن ابن المعتز لم يشر مجرد إشارة فى أول كتابه إلى محاسن الكلام هذه".

نقول لسيادته : وهل أشار ابن المعتز إلى فنون البديع التي سيتحدث عنها فى مقدمة كتابه؟!

ونعاود الحديث فنقول:إن ما قاله الأستاذان ربما يكون صحيحا، لكن السؤال ما زال قائما:

لماذا اختار ابن المعتز هذه الخمسة وأطلق عليها اسم (البديع)؟!

فإذا كان ما قاله الأستاذان جوابا لتقسيمه كتابه إلى مرحلتين، فإنه لا يعد جوابا لاختيار هذه الخمسة.

لقد قرأت كتاب البديع كاملا لكي أجد جوابا لهذا السؤال، ويعلم الله أنى وجدت تعليلا لذلك ، لكن بعدما انتشيت وفرحت ألفيت أستاذنا الدكتور/ محمد شادي قد سبقني إليه(١)، يقول سيادته فى تفسير ذلك:

(١) لعلي قرأت ذلك لسيادته قبل ذلك.

وفنون البديع عند ابن المعتز تكمل فى خمسة أنواع هي:
الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد الأعجاز على الصدور والمذهب الكلامي، ويعلل ابن المعتز اقتصاره على هذه الخمسة بقوله: ؛ لأن البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم".
يقصد – والكلام لسيادته– أن اقتصاره على الفنون الخمسة ليس تقصيرا منه، وإنما جريا مع ما شاع فى بيئته الشعراء والمتأدبين حصرهم فنون البديع فى هذه الأنواع التى يدعو اختراعها، أما ما سواها من الظواهر فإنه لا يغفلها ولا يهملها ، وإنما يذكرها تحت ما عرف عنده بمحاسن الشعر"(١).
والملاحظ من كلام سيادته عدة أمور:
أولا: أن سيادته قد استخرج تفسير عمل ابن المعتز من كلام ابن المعتز نفسه، وهذا ما تعلمناه من أساتذتنا.
ثانيا: إن ابن المعتز وجد أن البديع عند المحدثين هو هذه الخمسة فذكرها كما هي ليس جهلا منه، وإنما جريا على عادتهم.
ثالثا: إن ابن المعتز لما أحس بنقد علماء عصره لتقصيره زاد هذه المحاسن.
ويؤيد كلام سيادته قول ابن المعتز نفسه:
وقد قدمنا أبواب البديع الخمسة وكمل عندنا ..... الخ(٢).
وقوله فى موضع آخر:
ويعلم الناظر أنا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختيارا من غير جهل بمحاسن الكلام(٣).
إذن فسيادته قد أدرك أن انحصار بديع ابن المعتز فى الخمسة المذكورة جريا على ما شاع فى بيئة المتأدبين والشعراء آنذاك من حصرهم البديع فى هذه الأنواع .

(١) نشأة البلاغة وأصول علم المعاني- أستاذنا أ.د/محمد إبراهيم شادي ص ٩٠ ط ١٩٩٧م.
(٢) البديع لابن المعتز ص ١٥١ .
(٣) السابق ص ١٥٢ .

ونحن نؤكد على ما قاله أستاذنا الكريم، ونضيف – هذا إن سمح لنا سيادته – الآتي:

١- ظهور هذه الأنواع الخمسة في بيئة المتأدبين والشعراء لم يكن من ابتكاراتهم، ولكنه كثر في زمانهم مما أعطى انطباعا أنه مخترع وجديد.

٢- إننا لو لاحظنا ودققنا النظر لألفينا بين هذه الأنواع الخمسة وشائج وصلات من المخاتلة والخداع وإتيان الشيء من غير موضعه مما هو بديع مستطرف وجديد مبتكر- على الأقل من وجهة نظر الشعراء والمتأدبين آنذاك.

٣- ما زالت أؤكد على أن ابن المعتز قد ألف كتابه وذكر هذه الأنواع واستشهد لها من القرآن والسنة وشعر القدماء، ردا على من اتهم أبناء عصره بالخروج عن المألوف، واختراع أنواع بديعية لم يألفها القوم آنذاك بدليل قول ابن المعتز في مقدمة كتابه:

"وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع .. ثم يقول: وقد كان بعض العلماء يشبه الطائي في البديع بصالح بن عبد القدوس في الأمثال..." (١).

على أن ابن المعتز كان من المحدثين وقد استشهد لهذه الأنواع من شعره، فكيف يذم نفسه وهو العالم المعتدل؟!.

خلاصة القول :

إذن وقد ثبت أن ابن المعتز كان صورة لعصره في استحداث بعض الفنون التي هي خليط من المعاني والبيان والبديع، لم يكن وقتها يقصد بها العلم المعروف ولم يكن الغرض من ذكرها إلا رد ما زعمه القوم على ما مر.

أقول: لا مفر من الاعتراف أن صاحب كتاب البديع أراد به (البديع) ولم يقصد منه (علم البديع)،فالاستعارة بديع مستطرف وجديد والتجنيس والمطابقة كذلك ، ..وهكذا .

(١) البديع ص ٧٤.

فلم يؤلف ابن المعتز كتابا فى علم البديع ولكن هذه التسمية أخذها صاحب المصباح وتبعه القزويني على ما سيأتي فى مكانه(١) وأطلقها على بعض الفنون البلاغية.

(٢)
قدامة بن جعفر ونعوت الشعر

يقول عنه ابن النديم : "وكان قدامة أحد البلغاء الفصحاء ، والفلاسفة الفضلاء، وممن يشار إليه فى علم المنطق"(٢).

ويقول الدكتور/ أحمد موسى: وكان من أبرز تلك الآثار التي تركها قدامه كتاب: (نقد الشعر) الذي يدل على بعد بالشعر العربي، وينبئ عن حسن تذوقه مما يجعلنا نقول: إن قارئ ذلك الكتاب يحس من أوله إلى آخره بأنه أمام عقلية جديدة ، وطريقة فذة لا عهد له بمثلها من قبل قدامة، فهو يجمع إلى غزارة المادة وعمق التفكير، وحسن الترتيب والتفصيل ، وسهولة العبارة وإيجازها".

لكنه يعود ويقول: "وإذا كان ابن المعتز أول من ألف فى البديع، فقدامه أول من غمس علم البديع فى بحار الفلسفة ، واقتفاه واستعان بطريقته جمهور المؤلفين بعده"(٣).

ولعل ما أغرى سيادته بذلك قول قدامة نفسه بعد تحديد (نعت ائتلاف اللفظ والوزن): "وغير ذلك مما لو ذهبنا إلى شرحه لاحتجنا إلى لإثبات كثير من صناعتي المنطق والنحو فى هذا الكتاب"(٤).

لكن قدامة عاد وقال:"... ولكن فى ما أجملته فى هذا القول، وأشرت إليه من التنبيه على الطريق التي يعرف بها جودة هذا الباب ما كفى وأغنى ذوى القرائح السليمة ، ومن قد تعلق ببعض الآداب السهلة"(٥).

---

(١) فى الفصل الثالث (علم البديع بعد السكاكي).
(٢) الفهرست لابن النديم ص ١٣٠.
(٣) الصبغ البديعي فى اللغة العربية د/ أحمد إبراهيم موسى ص ١٤٤ .
(٤) نقد الشعر ت -كمال مصطفى - ط٣ مكتبة الخانجى ص ١٦٦ .
(٥) السابق ص ١٦٧ .

وأيا ما كان الأمر فلنا وقفة طويلة حول كتاب "نقد الشعر" وطريقه صاحبه في بحث آخر، ***لكن ما يعنينا هنا هو ألوان البديع وموقفه منها فنقول:***

إن أول ما يلقانا فى كتابه أن قدامة لم يؤلف كتابا فى البديع بل لم يؤلف كتابا فى البلاغة، لكنه وكما يظهر من عنوانه :كتاب فى النقد ،وقد حدد ذلك وقصره على : "نقد الشعر" يقول فى أول صفحة من صفحات كتابه : " ولم أجد أحدا وضع فى نقد الشعر وتخليص جيدة من رديئه كتابا، وكان الكلام عندي فى هذا القسم أولى بالشعر من سائر الأقسام المعدودة...."

وظل يفسر سبب اختياره لهذا القسم ... ثم قال : "فأما علم جيد الشعر من رديئه فإن الناس يخبطون فى ذلك منذ تفقهوا فى العلم، فقليلا ما يصيبون.

ولما وجدت الأمر على ذلك، وتبينت أن الكلام فى هذا الأمر أخص بالشعر من سائر الأسباب الأخر، وأن الناس قد قصروا فى وضع كتاب فيه، أن أتكلم فى ذلك بما يبلغه الوسع"(١).

ولعل من أهم ما تميز به قدامة فى كتابه: الدقة والتنظيم، فلقد كان واضحا من أول وهلة أنه يتحدث عن الشعر ونقده فعرفه وقسم التعريف ثم تحدث عن صفاته .

ويمكن أن نوجز عمل قدامة فى كتابه بأنه تحدث عن نعوت الشعر أو مظاهر الجودة لعناصر الشعر مفردة ومركبة ثم يقابلها بالعيوب التي تعتور الشعر.

= وفى خلال ذلك كله أدخل الألوان البلاغية –ومنها فنون البديع– عفوا دون قصد، حيث لم تكن تعرف وقتها بهذه الألوان التي تندرج تحت علم البديع.

كل ذلك كما يقول أستاذنا الدكتور طبانة/ "مع أن قدامة لم يؤلف كتابا فى البلاغة أو فى البديع، وإنما كتابه فى نقد الشعر ،وقد كان البلاغيون على حق فى هذا، فإن مجال البلاغة هو مجال النقد وفائدتها إيجابيه؛ لأنها تقدم النصح والإرشاد والتوجيه، وللبلاغة – سواء كانت علما أم فنا– قيمة عملية كبيرة"(٢).

---

(١) نقد الشعر ص ١٥، ١٦ .

(٢) البيان العربي للدكتور/بدوى طبانة ص ١٢٧.

على أن قدامة نفسه يقول: ".... ومع ما قدمته فإني لما كنت آخذا في استنباط معنى لم يسبق إليه من يضع لمعانيه وفنونه المستنبطة أسماء تدل عليها احتجت أن أضع لما يظهر من ذلك أسماء اخترعتها، وقد فعلت ذلك، والأسماء لا منازعة فيها إذ كانت علامات، فإن قُنع بما وضعته، وإلا فليخترع لها كل من أبى ما وضعته منها ما أحب، فليس ينازع في ذلك"(١).

وكلام قدامة هذا يذكرنا بكلام ابن المعتز قبله حين قال:

"... ويعلم الناظر أن اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختيارا من غير جهل بمحاسن الكلام، ولا ضيق في المعرفة، فمن أحب أن يقتدي بنا، ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل، ومن أضاف من هذه المحاسن، أو غيرها شيئا إلى البديع، ولم يأت غير رأينا، فله اختياره"(٢).

إلا أن الفرق بين ما قاله ابن المعتز وما نص عليه قدامة هنا، أن الأول يتحدث عن المحسنات والثاني عن المعاني.

على أن القضية التي شغلت قدامة في كتابه هي: المعاني" وائتلافها مع غيرها.

ولقد استطاع قدامة من خلال حديثه عن نعوت الشعر ومعانيه "أن يستخرج فنونا بلاغية، وهذه الفنون لا تخرج في طبيعتها، بل وفي أسمائها ومصطلحاتها عن تلك الفنون المعروف أنها من البلاغة، ولكن قدامة قد درس هذه الفنون على أنها نعوت أو مظاهر جودة لعناصر الشعر مفردة ومركبة، فهي مرتبطة أشد ارتباط بهذه العناصر، ومن الممكن أن يقال: إن قدامة عرف ما عرف من هذه الفنون، أو استخرج ما استطاع استخراجه منها، ثم وزعها بين هذه العناصر"(٣).

وحاصل القول:

(١) نقد الشعر ص ٢٣، ٢٤.

(٢) البديع لابن المعتز – المتنبي بنشره والتعليق عليه: أغنا طيوس كراتشقوفسكى ص ٥٨.

(٣) البيان العربي د/بدوى طبانة ص ١٢٧.

أن صاحب نقد الشعر ألف كتابه من أجل خدمة الشعر وما يجب أن يتميز به من نعوت فى اللفظ و المعنى والوزن والقافية ، كما أنه اهتم بما يجب أن يجرد عنه الشعر، وإن كان ذلك لم يقف أمامه كثيرا.

على أنه قد ذكر من نعوت الشعر :الجناس والتشبيه والطباق والتمثيل والغلو وغيرها ، ولم يفصل بين هذه الألوان كما فعل المتأخرون ،لكنه فقط صنفها من حيث النعوت المفردة والمركبة ومن حيث الألفاظ والمعاني والوزن والقافية.

فلم يعرف عنده ما يسمى بعلم المعاني أو البيان أو البديع، ولم يكن لعلم البديع ذلك الشأن الذي ادعاه البعض، لكن يمكن أن يقال: إن الاهتمام الأكبر كان بهذه الفنون وتوظيفها حسب خطة صاحب "نقد الشعر".

على أن لنا وقفة طويلة مع قدامة بن جعفر مع بحث عنوانه "تقريب نقد الشعر"لقدامة، ومحاولة قراءة هذا الكتاب القيم قراءة جديدة تبرئ ساحته مما لصق به من نقد مجحف سببه عدم الفهم لما كتبه قدامه، وما أراده من كتابه، والغرض الذي ألف من أجله.

(٣)
أبو هلال العسكري وصناعتي الشعر والنثر

حينما وسم أبو هلال العسكري كتابه بـ (الصناعتين) أراد بذلك: الحديث عن الشعر والنثر أو الكتابة والشعر- كما نص هو على ذلك-،لكن يختلف عن سابقيه فى أنه اقترب من التأليف فى علم البلاغة وإن كان لم يعنى بها العلوم الثلاثة التي استقر المتأخرون عليها، يقول فى مقدمة كتابه:

"إن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه (علم البلاغة) ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف إعجاز كتاب الله الناطق بالحق الهادي إلى سبيل الرشد....

وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة ، وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمنه من الحلاوة وجلله من رونق الطلاوة ، مع سهولة كلمة وجزالتها وسلاستها ، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها"(١).

وفى ما قاله صاحب الصناعتين دليل قوى على أن الغرض الرئيس إنما هو إعجاز القرآن والسر فيه وقد سلك الطريق إليه من خلال صناعتي الشعر والنثر وتسخير بعض المسائل البلاغية- ومنها فنون البديع- ليتبين بذلك وجه إعجاز القرآن.

على أن صاحب الصناعتين لم يعرف البديع علما، بل لم يعرف البلاغة بعلومها الثلاثة، لكن البلاغة عنده بمفهومها الأعم والأشمل، يظهر ذلك من خلال عرضنا فى إيجاز لما قدمه فى كتابه.

يقول فى أول الباب التاسع تحت عنوان: " فى شرح البديع" :الباب التاسع فى شرح البديع وهو خمسة وثلاثون فصلا" ثم يبدأ هذا الباب بالحديث عن الاستعارة فيفرد لها الفصل الأول ثم الطباق ثم الجناس وغير ذلك غير مفرق

(١) الصناعتين لأبى هلال العسكري ت/ د. مفيد قميحة ص ٩ دار الكتب العلمية.

بين أبواب علم المعاني كالإيغال والتذييل وبين فنون البيان كالاستعارة والكناية والتعريض وبين غيرها من الألوان البديعية.

ثم بعد تفصيل الكلام فى ذلك يقول :

"وقد فرغنا من شرح أنواع البديع، وتبيين وجوهها وإيضاح طرقها .... والزيادة التي زدناها فيها ستة فصول ، وأبرزناها فى قوالبها من غير إخلال ولا إهذار ... وإذا أردت أن تعرف فضلها على ما عمل فى معناها قبلها ... فمثل بينهما وبينه، فإنك تقضى لها عليه ، ولا تنصرف بالاستحسان عنها إليه....." (١).

ولا يعنينا ما إذا كان أبو هلال قد اكتشف حقيقة هذه الألوان أوْ لا- على الرغم من أهمية ذلك لمن يريد التتبع والاستقصاء .... إنما يعنينا هذا الإطراء الذي راح يخلعه على نفسه ؛ لأنه زاد فنونا، أو أنواعا ستة، وأضاف إليها سابعا ،عرض له بعد نظم هذه الأنواع ، فقد فتح ذلك الباب واسعا لإذلال كثير ممن أتى بعده يمثل هذه الاكتشافات والاختراعات ، وعمل فى الوقت نفسه على السعي حثيثا للعثور على اكتشاف لون أو اختراع نوع حتى لو أدى ذلك إلى تغيير المصطلح، أو تشقيق الشيء الواحد وتفريعه ، بل إن أبا هلال نفسه قد قام بذلك على خير وجه، فقد ساق من بين الألوان التي قال عنها إنه زادها وأبرزها فى قوالبها من الألفاظ من غير إخلال ولا إهذار – ساق (الاستشهاد والاحتجاج) وراح يقدم له بأنه كثير فى كلام القدماء والمحدثين، مما قد يوحى بأنه ما كان ينبغي لمن سبقه ألا يلتفت إليه، وبعد أن ينوه به ويعرفه ، يذكر طائفة ليست قليلة من الأمثلة والشواهد الدالة عليه، ولكن تتبع أمثلته وشواهده يكشف عن أنها من قبيل حسن التعليل، أو المذهب الكلامي ، أو التشبيه الضمني، بل إن أبا هلال نفسه قد أدرك شيئا من ذلك حين أنهى حديثه عن هذا اللون بقوله: "وتدخل أكثر هذه الأمثلة فى التشبيه أيضا ، وما دام أكثر الأمثلة التي ساقها تدخل فى دائرة التشبيه كما ذكر ، فلماذا تساق هنا، خاصة أنها تساق تحت لون يقول عنه: إنه زاده وأبرزه فى

(١) الصناعتين ص ٤٨٥ .

لفظه من غير إخلال ولا إهذار؟ وإذا لم يكن ذلك إخلالا وإهذار فما عسى أن يكون؟"(١).

والحق أن كتاب الصناعتين فى منهجه كتاب فى "النقد الأدبي" ولإن ظلت قواعده البلاغية مختلطة بمسائل النقد الأدبي، إلا أن أبا هلال العسكري يعد من أوائل العلماء الذين حاولوا فصل قواعد البلاغة عن مباحث النقد الأدبي، وتوجيه البلاغة توجيها علميا قاعديا يقوم على الحد والتعريف والتفريع وحصر المسائل واستيفاء الأقسام(٢).

يقول د/ أحمد موسى: "يعد الصناعتين أول كتاب بدت فيه البلاغة بعلومها الثلاثة (المعاني والبيان والبديع) بدوا ظاهرا واضحا ،لا لبس فيه ولا خفاء ، وليدرك من أول وهلة مبلغ مباينة أبى هلال من سبقوه بالتأليف فى علم البديع مستقلا أو تابعا للنقد، حيث عقد بابا من الأبواب العشرة خاصا بالبديع سرد فيه ستة وثلاثين نوعا لم يكن من بينها التشبيه، وقد عده معها ابن المعتز وقدامة كما لم يكن من بينها مقاطع الكلام ومباديه، قد بحث المبادى ابن المعتز ضمن ألوان البديع، وكذلك لم يكن من بينها السجع والازدواج، وقد عرض قدامة للسجع فى أثناء حديثه عن الترصيع"(٣).

ولعل ما قاله الدكتور طبانة وصاحب الصبغ البديعي يحتاج منا إلى وقفه لتفسير عمل صاحب الصناعتين فإن منهجه واختياره لأبوابه يحتاج فى التفسير لم يتطرق إليه أحد.

فإن من يفتح الصناعتين ويتجول فى صفحاتها ربما تعجب من منهج العسكري ووسمه بالخلط والتكرار من غير داع لذلك، لكن يبدو أن صاحب الصناعتين أحس بسوء اختيار الشعراء لبعض الألفاظ، وإعجاب الناس بهذه الألفاظ على دناءتها وخستها، ووضع المعاني فى غير مكانها فى الشعر والنثر،

(١) البديع – المصطلح القيمة – دكتور عبد الواحد علام ص ٤٣- دار الكتاب الجامعي ط٢ ١٩٩٦م.
(٢) البيان العربي د/ بدوى طبانة ص ١٤٦.
(٣) الصبغ البديعي للدكتور أحمد إبراهيم موسى ص ١٦٠.

بحث العسكري عن أقرب العلوم لتصحيح هذه المفاهيم، وللرقى بالذوق فى اختيار الألفاظ والمعاني فلم يجد سوى علم البلاغة بمفهومه آنذاك.
ولم يكن يعنى به المعاني والبيان والبديع ولكنها بلاغة الجاحظ وابن المعتز.
فالعسكري لم يشذ عن من سبقه سوى أنه اقترب من تحديد المفهوم وأكثر من التقسيمات.
ولعل ما يؤيد ذلك قوله فى أول صفحات كتابه:
"فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام، ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل ، ومكانه من الشرف والنبل، ووجدت الحاجة إليه ماسة، والكتب المصنفة فيه قليلة ، وكان أكبرها وأشهرها كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ، وهو لعمري كثير الفوائد، جم المنافع، ... إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة ، وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه، ومنتشرة فى أثنائه فهي ضالة بين الأمثلة ، لا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير .
فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملا على جميع ما يحتاج إليه فى صنعة الكلام نثره ونظمه، ويستعمل فى محلوله ومعقوده، من غير تفصيل وإخلال ، وإسهاب وإهذار ..." (١).
ولأجل هذا جاء منهجه بادئا بالحديث عن البلاغة لينتقل إلى التمييز بين الكلام الجيد والرديء والمحمود المذموم، ويلاحظ أن كيفية التمييز تلت معرفة البلاغة وحدودها.
ثم ينتقل صاحب الصناعتين إلى كيفية نظم الكلام والقول فى فضيلة الشعر وما ينبغي استعماله فى تأليفه ،وفجأة ينتقل إلى الإيجاز والإطناب مقحما هذا الباب بين البيان عن حسن النظم وجودة الرصف وبين الباب السادس فى حسن الأخذ وحل المنظوم وكأنه أراد بذلك أن يدل القارئ بالباب الخامس وهو الإيجاز والإطناب : معرفة هذا الباب ليسهل له بعد ذلك كيفية حل المنظوم.

(١) الصناعتين ص ١٣.

لكن يعود ويفرد للتشبيه بابا والسجع والازدواج بابا ،ثم الباب التاسع كله فى شرح البديع الذي هو عنده خليط من المعاني والبيان والبديع ، فقد ذكر فيه الاستعارة والمجاز والمطابقة والتجنيس والمقابلة والكناية والتعريض.
والالتفات،لكن أكثر هذا الباب من البديع الذي استقر عليه المتأخرون ، وختم كتابه بالباب العاشر فى الفصل والوصل وحسن الخروج.
والملاحظ على منهجه الآتي:
أولا: تدرجه فى التأليف بالحديث عن الفصاحة والبلاغة ثم النظم وحسنه ثم الإيجاز والإطناب .
ثانيا: إفراده التشبيه بباب، ولعل السبب فى ذلك هو انتشار هذا اللون آنذاك، وكثرته فى أشعار عصره، والاهتمام البالغ بهذا اللون.
أو لعل تشبيهات كثيرة معابة ظهرت فى عصره ،فلذا أفرد له باب، بدليل تقسيمه لهذا الباب إلى فصلين:
الأول: ما يستحسن من منثور الكلام ومنظومه فى التشبيه .
الثاني: فى البيان عن قبح التشبيه وعيوبه.
فلعله أراد وضع يد القارئ على التمييز بين الغث والثمين فى التشبيهات وتوجيه ذلك بإيراد شواهد كثيرة مستحسنة وأخرى معيبة.
فلأجل انتشار التشبيهات المعيبة فى عصره أفرد له بابا وتحدث عن مستقلا.
ثالثا: لقيمة السجع والازدواج فى الشعر والنثر أفرد له بابا وأخرجه من الباب العاشر، بدليل قوله:
"لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجا، ولا تكاد تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج"(١).
رابعا: اقتفاء أثر من سبقه كقدامة وابن المعتز فى حديثه عن البديع إلا فى القليل النادر واختلاف الأسماء ، لكنه وكمن سبق خلط بين علوم البلاغة ،وأدرج الجميع تحت ما يسمى بـ (البديع).
ولعل من الجور لصاحب الصناعتين أن نقول : (إنه خلط)، لأن العسكري لم يكن يعرف المعاني والبيان والبديع، لكنه كان يتردد أمامه مصطلح البديع

(١) الصناعتين ص ٢٨٥.

وينتقل من واسع لضيق بمعنى أن مفهوم البديع كان أشمل عند ابن المعتز إلا أنه رويدا ما بحث فى مسائله التي عرف بها أخيرا.

وحاصل القول فى ذلك:

أن العلامة العسكري قد أحسن استخدام طريقتي ابن المعتز وقدامه فى الباب الخاص بالبديع الذي عقده فى كتابه الصناعتين – كما نص على ذلك صاحب الصبغ البديعي- وأن الرجل لم يتنبه لما سمى بعد ذلك بعلم البديع ،إذ أن البديع عنده كان بمفهومه الشامل لعلوم البلاغة الثلاثة ، فالعسكري لم يشد عمن سبقه ولكنه اقترب قليلا من مفهوم البديع لكن لم يصل بعد إلى ما عرف عند المتأخرين .

(٤)
ابن رشيق
ومحاسن الشعر وآدابه ونقده

لم يختلف ابن رشيق كثيرا عن صاحب الصناعتين حيث ألف كتابه فى محاسن الشعر وآدابه.

وقد أشار ابن رشيق فى مقدمة كتابه إلى اختلاف الناس فى الشعر، وتخلفهم عن كثير منه، يقدمون ويؤخرون ، ويقلون ويكثرون ، وقد بوبوه أبوابا مبهمة، ولقبوه ألقابا متهمه، وكل واحد منهم قد ضرب فى جهة وانتحل مذهبا هو فيه إمام نفسه وشاهد دعواه(١).

يقول د/ طبانه: "فكأن ابن رشيق يريد أن يجمع العلماء والنقاد على كلمة واحدة لا يختلفون عليها، أي: أنه يريد القاعدة الثابتة التي يلتفون حولها، ليكون جهد الأجيال التالية الشرح أو التقرير.

ولا شك أن هذه دعوى خطيرة إلى توقف العقول والأذواق عن البحث والدراسة والاستنباط ، ولقد كانت هذه الدعوة أهم الأسباب فى توقف البلاغة العربية وتخلفها عن متابعة الأدب، ورصد حركات تقدمه(٢).

لكن صاحب الصبغ البديعي قد أعجبه منهج ابن رشيق وطريقته هذه وراح يقول:

"وقد حقق كل أولئك ابن رشيق فجرى فى نقد الشعر موفقا حتى بلغ الغاية ، واستولى على الأمد، ونبه أعين الحاسدين وأطلق ألسنة الحاقدين(٣).

والحق ما ذهب إليه صاحب الصبغ البديعي، فلم يرد ابن رشيق أن يكون جهد الأجيال التالية الشرح والتقرير- كما ذكر أستاذنا الدكتور طبانة-، لكنه أراد الضبط وبيان الصواب، وعدم الخلط بين هذا وذاك ، ولا شك أن هذا كله ليس دعوى إلى توقف العقول والأذواق – كما أشار سيادته- ولكنه

(١) العمدة ص ١٦ .
(٢) البيان العربي د/ بدوى طبانة ص ١٦٥.
(٣) الصبغ البديعي ص ١٨٠.

دعوى إلى التمييز بين الغيث والثمين والوقوف على محاسن الشعر وآدابه ، كما هو الغرض من كتابه (العمدة).

وأيا ما كان الأمر فإن الخطب سهل، وليس ثمة خلاف بين العالمين الكبيرين ولكنها اختلاف لرؤية كل منهما لكتاب العمدة لابن رشيق فحسب.

وقد تأثر ابن رشيق – عند حديثه عن ألوان البديع- بصاحب الوساطة حيث أطلق كل منهما عليها اسم (الحلي) لكنها حلى الشعر، وقد سبقهما ابن المعتز حيث سماها (محاسن الكلام والشعر).

يقول صاحب الصبغ البديعي: "ولعل هذا كله قد غر المتأخرين ، فأخذوا هذا الإطلاق على ظاهره وألصقوه بألوان البديع، وكان من النتائج السيئة :الحكم على هذه الأصباغ بأنها زائدة عن الغرض ، وآتيه بعد مطابقة الكلام المقتضى الحال ووضوح الدلالة.

ثم يقول سيادته:

وحسبي أن أقول هنا: إن الجرجاني وابن رشيق لم يقصدا إلى ما فهمه المتأخرون ، بل الحلية عندهما أمر ذاتي ليس بالعرضي يتم به العرض من الأسلوب – إن وجد- وينعدم – إن لم يوجد(١).

على أننا سنقف مع هذا الموضوع فى مكانه من الفصل الثالث إن شاء الله.

وما يهمنا هنا هو مفهوم البديع عنده ،يقول دكتور/ طبانه:

"وهو فى دراسة هذا الفن يتتبع كل محسن من محسنات الكلام، ويعرض فيه آداب السابقين وأمثلتهم ، وما أصاب اسم المصطلح من التغيير، أو ما أصاب معناه من التجدد عند الدارسين.

ثم يقول سيادته:

والبديع عنده كما هو عند الذين سبقوه شامل لعناصر الحسن فى العمل الأدبي، من غير تفريق أو محاولة لتوزيعها على علوم البلاغة الثلاثة(٢).

ولقد سمى ابن رشيق باب بـ (المخترع والبديع) وحاول التفرقة بين المصطلحين حين قال:

---

(١) الصبغ البديعي ص ١٨١ .

(٢) البيان العربي د/ طبانة ص ١٦٨.

"والفرق بين الاختراع والإبداع- وإن كان معناهما في العربية واحدا أن الاختراع:خلق المعاني التي لم يسبق إليها، والإتيان بما لم يكن منها قط، والإبداع: إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف والذي لم تجر العادة بمثله، ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع، وإن كثر وتكرر، فصار الاختراع للمعنى والإبداع للفظ، فإذا تم للشاعر أن يأتي بمعنى مخترع في لفظ بديع فقط استولى على الأمد ، وحاز قصب السبق ...

ثم يقول:

والبديع ضروب كثيرة وأنواع مختلفة، أنا أذكر منها ما وسعته القدرة وساعدت فيه الفكرة إن شاء الله تعالى"(١).

والذي يظهر لنا من النص السابق:

أولا: أن البديع عنده إتيان الشاعر بمعنى مستظرف لم تجر العادة بمثله ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع وإن كثر وتكرر .

ثانيا: أن ابن رشيق ضيق مفهوم البديع حين وازن بينه وبين المخترع ، فقال: (فصار الاختراع للمعنى والإبداع للفظ).

ثالثا: أن في قوله: "البديع ضروب كثيرة وأنواع مختلفة، أنا أذكر منها ما وسعته القدرة ، وساعدت فيه الفكرة= دليل على عدم حصر أنواع البديع ، وعدم القدرة على ذلك.

فالاستعارة عنده أفضل المجاز وأول أبواب البديع، وليس في حلى الشعر أعجب منها، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها، ونزلت موضعها، وهذا يدل على أن الحسن المستفاد من البديع ذاتي ، وراجع كلامه لقدرك ذلك.

ولعل مما يدل على ذلك قوله: إن التشبيه والاستعارة من محاسن الكلام وأن الإشارة من غرائب الشعر وملحه، وأنها بلاغة عجيبة.

فلقد صار ابن رشيق على طريقة من سبقوه في تحديد مفهوم البديع حيث لم يشذ عنهم بدليل تصدر أنواعه للاستعارة التي هي من علم البيان بعده.

---

(١) العمدة لابن رشيق ١/ ٢٦٥ .

لكن بقيت كلمة فى غاية الأهمية سأترك العلامة د/ أحمد موسى يفصح عنها:يقول سيادته.

"إن ابن رشيق أمثل رجال هذه المدرسة فى طريقته وحسن تنسيقه ودقه تصويره،إذ جمع بين الحسنيين : حسنى التدقيق العلمي، وحسنى اختيار الشواهد وانتقاء المثل، فكان القسم الخاص بالبديع فى العمدة أقرب مورد ورده المتأخرون، فنهلوا منه وعلوا ، وإن كانوا لم يحسنوا استخدام هذا التراث الحافل، فرحوا يكثرون من الألوان ويسردونها سرد المفردات اللغوية حتى منى البديع بما منى به على أيديهم"(١).

(١) الصبغ البديعي ص ٣٠٢ .

(٥)
ابن سنان وسر الفصاحة

تقديم :

ظلَّ علمُ البديع حتى ابن سنان الخفاجيّ كغيره من علوم البلاغةِ الأخرى عاماً يُطلَق أحياناً وَيُقْصَدُ بِه الاستعارةُ والتشبيهُ ، والجناسُ والسجعُ .

ويُعدُّ العلامةُ الجاحظُ " أولَ من استعملَه استعمالاً بلاغياً نقديًّا "[١] وذلك فى كتابه "البيان والتبيين" ، كما يُعَدُّ ابن المعتز أولّ من ألّف فيه كتاباً سماه "البديع" ، وقد ظلّ هذا المصطلحُ عامًّا تتداخل معه المسائل البلاغية الأخرى، والتي انحصرتْ فيما بعد وتوزعتْ بين (المعاني والبيان والبديع) ، وقد مر تفصيل القول في ذلك في الصفحات السابقة.

وقد أردتُ من هذا التقديم أن أبينَ أن ابنَ سنان لم تكنْ قد تحددتْ عندهُ المسائلُ البلاغيةُ ، وتوزعتْ على علومِها الثلاثة التي استقرتْ عند المتأخرين .

وإذا صحّ هذا الكلامُ ، فإن ابن سنان كغيره ممن سبقَه قد تداخلتْ عنده مسائلُ البديعِ بالمعاني والبيان ، وكان تناولُه لها أثناءَ حديثه عن الفصاحةَ والبلاغةِ ، فقد ظلَّ يبحثُ عن حقيقةِ الفصاحةِ ويضعُ لها شروطاً ؛ ليتحققَ له غرضه من كتابِه.

موقف ابن سنان الخفاجي من علم البديع :

ذكر ابن سنان أن من شروطِ الفصاحةِ "المناسبةُ" ، وهى تتنوعُ عندَه إلى : مناسبةٍ عن طريق الصيغةِ ، ومناسبةٍ من طريق المعنى[٢]، وفى أثناءِ ذلكَ درسَ المحسناتِ البديعيةَ ووزّعَها بين اللفظيةِ والمعنويةِ .

---

[١] من وجوه تحسين الأساليب فى ضوء بديع القرآن أ.د/ محمد شادى ص ٨.
[٢] سر الفصاحة ص ١٦٩ .

" ولعلّ الإمام الرازي قد استمدَّ ذلكَ منهُ ، إذ جعلَ هذه الألوانَ جميعها من النظم الذى يشتدُّ اتصالُ أجزائِه[1]".

ويُعَدُّ ابن سنان بهذا مكمِّلا "للبناءِ الذي أسَّسَهُ قدامه فى "نقد الشعر" من تنويع الأصباغِ البديعيةِ إلى لفظية ومعنوية ، فكان ثاني اثنين مهّدا الطريق للمتأخرين فى تقسيمها هذا التقسيم ، وإن كانت نظرة ابن سنان أسد وطريقته أعدل إذ جعل ذلك من شرائط الفصاحة والبلاغة ، وسلك فى شرحها الطريقَ الذي سلَكَهُ رجالُ هذه المدرسةِ من جعلها ذاتية وليست بالعرضيّة[2]".

يقول أحد النقاد : " إن ابنَ سنان قد ساعدَ بكتابه فى وضع الأساس العلمي لاتجاه أصحاب البديع ، وكان من أقوى الدعائم التي ارتكز عليها المتأخرون فى التفرقة بين اللفظي والمعنوي من فنون البديع[3]" .

ويقول أستاذنا الدكتور محمد شادي : " والحقُّ أنه لا وجْهَ لتقسيم الوجوهِ البديعية إلى لفظية ومعنوية[4] لأن ذلك يغرى بالتفريقِ بين اللفظ والمعنى مع أنهما متعانقان ، فإن أي لفظ لابد أن يكون حاملاً لمعنى ، والمعنى لا يدل عليه إلا بلفظ ، وما اللفظ والمعنى إلا كجناحي طائر ، لا ينهض بأحدهما دون الآخر[5]" .

ومع أن هذا الكلام مما لا يشك فى صحته " إلا أن الخفاجي كان يتدارك إلى حد ما ظاهر ما يوهمه هذا التقسيم والتحديد من استثناء اللفظ بما استقل به من غير شرك للمعنى فيه ، أو عكس ذلك من استئثار المعنى بدون اللفظ ،

---

[1] نشأة البلاغة وأصول علم المعاني أ.د/ محمد شادي ص ١٢٨.

[2] الصبغ البديعي ص ٢٠٨ ، وفن البديع د/ عبد القادر حسين ص ٣٧ ، بديع القرآن لابن أبى الإصبع ص ٣٥.

[3] تاريخ النقد الأدبي من القرن الخامس إلى العاشر الهجري ـ د/ محمد زغلول سلام ص ٢٦٣.
ط / دار المعارف .

[4] أدرك أستاذي الدكتور عبد الغنى بركة : أن ما يميز المحسن اللفظي عن المعنى :أن المعنوي لو غير فيه اللفظ بما يرادفه لبقى المحسن كما كان قبل التغيير بعكس اللفظي . "راجع ذلك بالتفصيل فى كتاب سيادته : دراسات فى فن البديع ص ٢٤، ط سنة ١٩٨٣م.

[5] من وجوه تحسين الأساليب ص ١٣ .

فنص على أن المناسبة التي هي من طريق الصيغة كالجناس والسجع وما إليها، لابد أن ينصرها المعنى ويؤيدها[1]، فقال فى السجع بعد أن حكى الخلاف فيه : "والمذهب الصحيح أن السجع محمود إذا وقع سهلاً متيسراً بلا كلفة ولا مشقة ، وبحيث يظهر أنه لم يقصد فى نفسه ، ولا أحضره إلا صدق معناه ، دون موافقة لفظه[2]".

والمهم أن دراسة ابن سنان للبديع جاءت ضمن حديثه عن شروط الفصاحة(٣).

ولعل مما يؤكد ذلك :

أنه قد ذكر "المطابقة" فى كتابه "سر الفصاحة" عند حديثه عن شروط الفصاحة المتعلقة بالتناسب بين اللفظتين ، عندما تأتى المناسبة بينهما من طريق المعنى٤.

يقول ابن سنان : " فأما تناسب الألفاظ من طريق المعاني ، فإنها تتناسب على وجهين : أحدهما : أن يكون معنى اللفظتين متقارباً ، والثاني : أن يكون أحد المعنيين مضاداً للآخر ، أو قريباً من المضاد ، فأما إذا خرجت الألفاظ عن هذين القسمين فليست بمتناسبة "٥.

والحقيقة التي لا يرتاب فى صحتها أحد أن ابن سنان كان يعرف "أنواع الطباق المختلفة" ، كما كان يعرف "المقابلة" التي استقرت عند البلاغيين المتأخرين ، ولكنه مع ذلك لم يكن يهتم بالمصطلحات بقدر اهتمامه بتحقيق التناسب يقول :

"وقسم بعضهم التضاد ، فسمى ما كان فيهما لفظتان معناهما ضدان كالسواد والبياض ـ المطابق ـ وسمى تقابل المعاني والتوفيق بين بعضها وبعض حتى تأتى فى الموافق بما يوافق وفى المخالف بما يخالف على الصحة ـ المقابلة ـ وسمى ما فيه سلب وإيجاب ـ السلب والإيجاب ، ولم يجعله من المطابق .. فأما

[1] البلاغة بين عهدين د/ محمد نايل ص ٢٣٢ .
[2] سر الفصاحة ص ١٧١ .
[3] راجع اتجاهات النقد الأدبي فى القرن الخامس الهجري د/ منصور عبد الرحمن ص ٨٢ .
[4] سر الفصاحة ص ١٩٩ .
[5] السابق نفس الصفحة .

التسمية فلا حاجة بنا إلى المنازعة فيها ؛ لأن الغرض فهم هذه المناسبة دون الكلام فى أحق الأسماء بها ، على أن الذي أختاره تسمية الجميع بالمطابق"[1]
ومما استشهد به ابن سنان للطباق قول زهير بن أبي سلمى :

لَيْثٌ بِعَثَّرَ يَصْطَادُ الرِّجالَ إذاَ ما اللّيَثُ كَذَّبَ عن أَقْرانِهِ صَدَقَا[2]

وقول بشار بن برد[3]:

إِذَا أَيْقَظَتْكَ حُـرُوبُ الْعِـدَا فَنَبِّهْ لَهَـا عَمْراً ثُـمَّ نَـمْ[4]

وابن سنان ـ كعادته ـ يذكر أمثلة تكشف عن جهتى الحسن والقبح ، فمن الشواهد التى رفضها ابن سنان لتكلفها قول حبيب بن أوس :

لَعَمْرِى لَقَدْ حَرَّرْتَ يَوْم لَقِيتَهُ لَوْ أَنّ الْقَضَاءَ وَحْدَهُ لَمْ يُبَرِّدِ[5]

فهذا البيت من الطباق القبيح الذي لم يرد لحسن معناه وسلامة لفظه ، بل لتكون فى الشعر مطابقة فقط[6].
ومن شواهد الطباق عند ابن سنان قول الفرزدق :

لَعَنَ الإِلَـهُ بَنِى كُلَيْبٍ إِنَّـهُمْ لاَ يَغْدِرُونَ وَلاَ يُفُون لِجَارِ
يَسْتَيْقِظُونَ إِلى نَهِيقِ حمارِهِمْ وَتنامُ أعيُنُهمْ عن الأَوْتَارِ[7]

وهذا الشاهد مما ممثل به المتأخرون للطباق الجيد ، فقد جعلوه من لطيف الطباق ، "ففى البيت الأول تكميل حسن ، إذ لو اقتصر على قوله " لا يغدرون " لاحتمل الكلام ضرباً من المدح ، إذ تجنب الغدر قد يكون عن عفة

[1] سر الفصاحة ص ٢٠٠ .
[2] عثَّر : اسم مكان توجد فيه الأسد ، والقرن : الصاحب فى القتال ، والبيت من قصيدة يمدح فيها هرم بن سنان . (انظر ديوان زهير ص ٥٤ ط الهيئة العامة للكتاب) ، والبيت فى البديع لابن منقذ ص٣٦ ، والموازنة للآمدي ١/١٧ ، ١/٢٨٩ .
[3] ولد بشار أعمى جاحظ الحدقتين ، توفى سنة ١٦٧ هـ (تاريخ آدب اللغة العربية ٢/٥٦) .
[4] البيت فى نقد الشعر ، جعله قدامة من التكافؤ . (نقد الشعر ص ١٤٦) .
[5] ديوان ٢/٢٥ يقول : كنت قربت قتله غير أن القضاء نجاه (السابق) .
[6] سر الفصاحة ص ٢٠١.
[7] البيت فى البديع لابن المعتز وفى المثل السائر وفى الطراز مرويٌّ برواية "قبح الإله بني كليب" (راجع البديع ت د/ خفاجي ص ١٢٩ ، المثل السائر ٣/١٤٦ ، الطراز للعلوي ص ٣٨٥) .

، فقال " لا يفون" ؛ ليفيد أنه للعجز ، كما أن ترك الوفاء للؤم ، وحصل مع ذلك إيغال حسن ؛ لأنه لو اقتصر على قوله : " لا يغدرون ولا يفون " لتم المعنى الذي قصده ، ولكنه لما احتاج إلى القافية أفاد بها معنى زائداً حيث قال "لجار" ، لأن ترك الوفاء للجار ، أشد قبحاً من ترك الوفاء لغيره"[1].

ويبدو أن ابن سنان الخفاجي " يرفض التفرقة بين الطباق والمقابلة ، ولعله كان على صواب حين رفض تلك التفرقة فى قوله : " فأما تناسب الألفاظ من طريق المعانى... الخ "[2]

ومما يدل على ذلك أنه استشهد للطباق الحسن بقول المتنبي:

أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي وأنثني وَبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغْرِى بى[3].

فهذا البيت، مع بعده من التكلف، كل لفظة من ألفاظه، مقابلة بلفظة هي لها من طريق المعنى بمنزلة الضد[4].

أما المقابلة التي تحدث عنها ابن سنان ، فذلك عند بيان الأوصاف التي تطلب من المعاني ومنها "صحة المقابلة فى المعاني"[5].

ومن أمثلة ذلك قول الشاعر :

جَزَى اللهُ خَيْراً ذَاتَ بَعْلٍ تَصَدَّقَتْ عَلَى عَزَبٍ حَتّى يَكُونَ لَهُ أَهْلُ

فَإِنَّـــا سَنَجْزِيهَا بِمِـثْلِ فِعَالِـــهَا إِذَا مَا تَزَوَّجْنَا وَلَيْسَ لَهَا بَعْلُ[6]

---

[1] بغية الإيضاح ٤/٦ .
[2] فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور د/ رجاء عيد ص ٢٢٠ ، وسر الفصاحة ص ١٩١ .
[3] ديوانه ص ٤٤٨ ، ويغرى بى : يحضهم على .
[4] سر الفصاحة ص ٢٠٣ .
[5] سر الفصاحة ص ٢٦٧ .
[6] البعل : الزوج ، والعزب : من لا أهل له ، والبيت مروىٌّ برواية مختلفة (انظر نقد الشعر ص ١٣٥، وانظر: منهاج البلغاء ص ٥٣).

وهى مقابلة صحيحة ؛ لأنه جعل فى مقابلة أن تكون المرأة ذات بعل وهو لا زوج له ، أن يكون ذا زوج وهى لا بعل لها ، وقابل حاجته وهو عزب بحاجتها وهى عزبة[1].

بعد هذا العرض ظهر بما لا يدع مجالاً للشك أن ابن سنان يعرف المطابقة بمفهومها وبأنواعها التى استعملت عند المتأخرين ، ولكنه مع هذا ، لم ينص على ذلك ، وإنما استشهد بشواهد تؤكد معرفته لها ، كما أنه لم يفرق بين المطابقة والمقابلة ، والسبب فى ذلك كله أن ابن سنان بحث الطباق والمقابلة بغرض تحقيق التناسب بين الألفاظ من جهة المعنى ، كما أشار هو فى أكثر من موضع على ذلك .

ومن أمثلة ذلك : المُبَالَغَـــةُ[2] فقد تحدث ابن سنان عنها ضمن حديثه عن "الكلام فى المعاني المفردة"، وسأدعه يفصح عن منهجه فيها : يقول : " ... فإذا كان قد مضى الكلام فى الألفاظ على الانفراد والاشتراك فلنذكر الآن الكلام على المعاني مفردة من الألفاظ ؛ ليكون هذا الكتاب كافياً فى العلم بحقيقة البلاغة والفصاحة ..."[3]

ثم يقول " أما حصر المعاني بقوانين تستوعب أقسامها وفنونها على حسب ما ذكرناه فى الألفاظ فعسير متعب لا يليق بهذا الكتاب تكلفه ؛ لأنه ثمرة علم المنطق... ولسنا بذاهبين فى هذا الكتاب إلى تلك الأغراض والمطالب ، لكن نحتاج إلى أن نومئ إلى المعاني التي تستعمل فى صناعة تأليف الكلام المنظوم والمنثور ، ونبين كيف يقع الصحيح فيها والفاسد والتام والناقص ... وإنا فى هذا الموضوع إنما نتكلم على المعاني من حيث كانت موجودة فى الألفاظ التى تدل عليها ... ثم ليس نتكلم عليها من حيث وجدت فى جميع الألفاظ ، بل من حيث توجد فى الألفاظ المؤلفة المنظومة على طريقة الشعر والرسائل وما يجرى مجراهما فقط ، إذ كان ذلك هو مقصودنا فى هذا الكتاب ، وإذا بان هذا ،

---

[1] سر الفصاحة ص ٢٦٧ .

[2] هى : أن يدعى لوصف بلوغه فى الشدة أو الضعف حدًّا مستحيلاً أو مستبعداً لئلا يُظن أنه غير متناهٍ فى الشدة أو الضعف . (بغية الإيضاح ٤/٤٠) .

[3] سر الفصاحة ص ٢٣٤ .

فإن الأوصاف التي تطلب من هذه المعاني هي الصحة والكمال والمبالغة ، ... الخ"[1]

وكلام ابن سنان السابق والذي أفصح فيه عن غرضه ومنهجه ، واضح بما لا يجعلني أعلق عليه أو أبين مراده ، وكل ما يمكن توضيحه هو أن المبالغة تعد من المسائل البلاغية التي تحقق لابن سنان هدفه وبغيته .

وتفسير ذلك : أن ابن سنان يبحث عن الفصاحة التي هي الإبانة والوضوح ، "والمبالغة تعد وسيلة من وسائل شرح المعنى وتوضيحه والإبانة عنه ، وعلى هذا فالصلة بين "المبالغة" والشرح والتوضيح أو الإبانة صلة وثيقة ؛ لأن الإبانة تعنى التعبير عن المعنى بطريقة تقرب بعيدة ، وتصوره فى نفس المتلقي أبين تصوير ، والمبالغة تصبح وسيلة من وسائل تبيين المعنى وتوضيحه عندما يراد بها تمثيل المعنى ، أو التأكيد على بعض عناصره المهمة ، أو تضخيم وقعه فى النفوس"[2].

ولقد توسع ابن سنان فى مفهوم المبالغة حتى أدخل فيها قول الشاعر[3]:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنّ سُيُوفَهُمْ بِهِنّ فُلُولٌ مِن قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

وإنما كان هذا الاستثناء من المبالغة فى المدح ؛ لأنه قد دل به على أنه لو كان فيهم عيب غيره لذكره ، وأنه لم يقصد إلى وصفهم بما فيهم على الحقيقة[4].

وقول النابغة الجعدى[5]:

فَتىً كَمِلَتْ أَخْلاَقُه غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فَمَا يبْقى مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا[6]

والبيتان استشهد بهما المتأخرون تحت ما يسمى بـ " تأكيد المدح بما يشبه الذم"[1]

---

[1] السابق ص ٣٣٥ ، وقد سلك ابن سنان مسلك قدامة من جعل المبالغة والغلو لفظين مترادفين على معنى واحد ، ولم يفرق بينهما كما صنع أبو هلال وابن رشيق (الصبغ البديعي ٣١٦).

[2] مفهوم المبالغة فى الفكر النقدي والبلاغي د/ أحمد عبد السيد الصاوي ص ١٣١ .

[3] النابغة الذبياني : هو زياد بن معاوية بين خباب الذبياني الغطفاني المضرى شاعر جاهلي من الطبقة الأولى من أهل الحجاز ، توفى سنة ١٨ ق. هـ

[4] سر الفصاحة ص ٢٧٣ .

[5] أبو ليلى عبد الله بن قيس ، ولد فى الفلج جنوبى نجد وتوفى بأصبهان سنة ٦٥ هـ .

[6] سر الفصاحة ص ١٧٣ .

ومما لا شك فيه أن " تأكيد المدح بما يشبه الذم " ، يُعد من الكلام الذي يؤكد المعنى ويقويه ، عن طريق المبالغة فيه ، فابن سنان كان مصيباً عندما عده من المبالغة .

ولعل السبب فى توسع ابن سنان وغيره فى مفهوم المبالغة يرجع إلى كونهم "يقصدون بها كل صورة أو أسلوب يؤدى إلى قوة المعنى وزيادته عن المطلوب الذي يؤدى أصل المعنى" .

" فالرماني يجعل من المبالغة زيادة المعنى لزيادة المبنى ، وابن رشيق يجعل منها التتميم ، وابن أبى الإصبع يجعل منها ما عرف بالمجاز العقلي"[٢].

على أن ابن سنان ظل يعدد الشواهد التي توافق غرضه من بحث المبالغة لتحقيق التأكيد والتوضيح باعتبارها من الأوصاف التي تطلب من المعاني.

وقد تحدث ابن سنان عن كثير من الفنون البديعية تحت شروط الفصاحة ولولا مخافة السأم والخروج عن الغرض الرئيس من البحث لفصلت القول في ذلك.

ويمكن إيجاز ذلك في الآتي:

١ ظل علم البديع حتى ابن سنان الخفاجى كغيره من علوم البلاغة الأخرى يطلق أحياناً ويقصد به الاستعارة والتشبيه والجناس والسجع

٢ جاء ابن سنان الخفاجى والألوان البديعية متداخلة مع علم المعانى والبيان ، فوزعها تبعًا لخطة ارتضاها هو .

٣ -ذكر الخفاجى أن من شروط الفصاحة "المناسبة" ونوعها إلى : "مناسبة عن طريق الصيغة" ، و "مناسبة من طريق المعنى " ، وفى أثناء ذلك درس المحسنات البديعية ووزعها بين اللفظية والمعنوية .

إذن يمكن القول أن صاحب سر الفصاحة قد درس الفنون البديعية ولم يكن وقتها تعرف بـ (علم البديع)، لكنه وزعها على منهجه وتحت شروط

---

[١] بغية الإيضاح ٤/٤٩ .

[٢] راجع : من وجوه تحسين الأساليب أ.د/ محمد شادي ص ٧٧ ، والنكت فى إعجاز القرآن ـ ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ـ ص ١٠٤ ، والعمدة ٥٨/٢ ، وبديع القرآن ص ٥٤ .

الفصاحة ووضع كلا منها تحت ما يخدم منهجه من هذه الشروط على ما مر ؛ حيث كان الغرض من تأليف كتابه هو البحث عن سر الفصاحة ووضع شروط لتحقيق ذلك ومن خلالها درسها هذه الفنون.

(٦)
عبد القاهرة والنظم

يقول الدكتور عبد الواحد علام: "إن من يقرأ كتابي الشيخ عبد القاهر يقف على أنه كان يسعى إلى تحقيق تلك الغايات التي سعى إليها البلاغيون من قبل ومن بعد، إنه لا يعنيه أبدا سرد ألوان البديع، أو إضافة إليها والإدلال علينا بهذا الاكتشاف ، ولا يهمه أبدا أن يقسم هذه الألوان إلى طائفة تنتمي إلى اللفظ وأخرى إلى المعنى، فهو ضد هذه الثنائية العجيبة ، كما أنه لا يقول بما قالوه من قبل ومن بعد- أيضا- بحصر غاية البديع فى الزينة والزخرف ، كل ذلك يرفضه عبد القاهر رفضا قاطعا فى عبارات حاسمة بلغت درجة كبيرة من العنف فى بعض الأحيان.

لقد أدرك عبد القاهر – على سبيل المثال- قيمة البديع فى تشكيل الصورة وتحقيق الغرض، وهو بهذا يعود بالبديع إلى مفهومه الذي ينبغي أن يسود، وهو مفهوم ليس جديدا، بل هو قديم قدم التأليف فى الفكر العربي على نحو يعتد به ويؤخذ .

ثم يقول : وإذا كان الأمر على هذا النحو فلا غرو أن جاء كتابا عبد القاهر على غير ما جاء عليه كتب جل البلاغيين الذين راحوا يتسابقون كما رأينا- فى حلبة البديع فهو- وإن كان يفهم البديع بالمعنى الواسع على غرارهم- لم يجنح للسرد والإكثار والتشقيق والتفريع..." (١).

وهو كلام فى غاية الخطورة-ومع صحته إلا أنه فى غير محله ، فإن الشيخ عبد القاهر لم يؤلف كتابه فى البلاغة التى استقر عليها القوم، وإن عد من البلاغين فلما تضمنه كتاباه من مسائل بلاغية جاءت ضمنا ليشرح بها نظريته فى النظم ، وليؤكد على صدق دعواه.

ولعل أحدا لا يغفل عن عدم تفرقة الشيخ بين البيان والبلاغة والبراعة والفصاحة وكلها عنده متساوية.

وإذا صح ذلك- وهو مما لا يشك فى صحته فكيف يقول الدكتور علام: " لم يجنح للسرد والتشقيق والتفريع".

---

(١) البديع المصطلح والقيمة – دكتور /عبد الواحد علام ص ٥٣-ط٢- الكويت ١٩٩٦م.

كيف ذلك وعبد القاهر لم يعرف علوم البلاغة الثلاثة، ولم يكن قد فصلت، فهو وإن كان قد درس التقديم والتأخير والحذف والذكر والتشبيه والاستعارة وهكذا .... ،فإنه قد حشد هذه المسائل لخدمة قضية النظم التي شغلت فكره وأخذت وقتا كثيرا من تأليفه.

لا مفر إذا من الاعتراف أن الشيخ كان يبحث عن أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، ولم نجد عنده أثرا لأي تقسيم للبلاغة فضلا عن تقسيم علم البديع.

فالتشبيه عنده كالجناس والسجع فى خدمة قضيته النظم والإعجاز ، وإذا أعطى لبعض ألوان البديع اهتماما فلأنها عنده على درجة واحدة مع مسائل البلاغة الأخرى.

ولذا كان من العجيب أن يقول الدكتور كلام : "كما أنه لا يقول بمصر غاية البديع فى الزينة والزخرف".

وإذا كان الشيخ عبد القاهر قد شذ عن سابقيه كأبي هلال وابن رشيق وابن سنان فذلك لاختلاف غرض كل منهما من تأليفه كتابه.

فلم يكن الشيخ بحاجة إلى سرد الألوان البلاغية والإكثار منها، وتشقيقها كما فعل ابن رشيق وأسامة بن منقذ وأبو هلال ، لأنه كان يذكر منها ما يخدم قضيته فحسب فكان لا يشغل باله أن يضيف لونا بلاغيا ، أو أن يغفل عنه ؛ لأنه ليس بصدد التأليف البلاغي.

على أنه من الغريب أن نجد بعض النقاد والبلاغيين من يلوم الشيخ عبد القاهر فى تقصيره لدراسة البديع وعدم سرده لبعض ألوانه ، وكأنه بذلك يعاقب الشيخ الإمام على عدم وجوده فى القرن السابع.

يقول أستاذنا الدكتور محمد نايل: "أهمل الشيخ كثيرا من الفنون البديعية التي عنى بها السابقون قبله ، فلم يعرض لها، ولم يشر إليها، فى حين أنه خص جانبا منها بالبحث الواسع والتفصيل الدقيق، وكرر الحديث عنها مرات فى الدلائل والأسرار كالاستعارة والتمثيل، والمجاز والكناية ، فهل لذلك من سر؟

ثم يطرح سيادته عدة أجوبه لسؤاله السابق، يقول : كان الشيخ فى كتابيه يبحث عن البلاغة العالية ، والبيان الساحر، أو بعبارة أخرى : كان يبحث عن دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، ومن رام هذا الطلب كان بمنأى عن الجمع والاستقصاء، وأبى عليه كبر همه أن يحشد ما يوزن وما لا يوزن فى معرض، وأن يجمع الغالي والرخيص فى قرن، وما من شك أن فنون البديع متفاوتة على بعد تفاوت ، وإن منها ما يغلو ثمنه ويعز مطلبه، ومنها ما هو دون ذلك على مسافات وأميال، والفارق بيّن ظاهر بيْن الاستعارة والتمثيل مثلا، وبين العكس ورد الأعجاز على الصدور والإرصاد.

تلك وجهه، وهناك ثانية هي أن الشيخ لم يغفل ما أغفل لنزوله عن مستوى نظرته فى البلاغة فحسب ، بل كان إلى جانب ذلك اعمتاده على ما كتب السابقون فيه، فقد رآهم استقصوا ما ترك ، ووفوه حقه من البحث والبيان ، فلم ير حاجة إلى التكرار والإعادة.

ومع هذه وتلك ثالثة : إن ما ذكره الشيخ من ذلك فى كتابيه إنما كان وثيق الصلة بقضية اللفظ والمعنى ، فكان من الحتم أن يجره الحديث عن هذه القضية إلى الحديث عن هذه الأنواع، وأن يبين الأمر فيها، لاشتهارها وقوه اتصالها بتلك القضية.

فقد وجد دعاة اللفظ يقولون: إن حسن الاستعارة والجناس وأكثر فنون البديع راجع إلى اللفظ وحده ، وقد رأينا فيما سبق كيف زيف الشيخ هذا الزعم ورد أكثر الحسن فى الاستعارة إلى ما يعود عليها من جهة النظم، وأنه يهيئ ويمهد للطفها وغرابتها"(١).

ومع وجاهة ما قاله سيادته إلى أن تفسير ذلك لا يستحق كل هذا العناء حيث إن الشيخ الإمام درس المسائل البلاغية بغرض دفاعه عن قضيتي النظم والإعجاز ، فلم يهتم بالتوزيع والتقسيم، ولم يدخل فى سباق مع أحد بالإضافة أو الحذف ، لكنه فقط ألّف كتابيه وانشغل بقضية النظم وقضية الإعجاز القرآن، من أول وهلة ، وكلما سنحت له الفرصة وأراد تطبيق ما

(١) البلاغة بين عهدين فى ظلال الذوق الأدبي وتحت سلطان العلم النظري- د/محمد نايل ص٢٣٠ - ط دار الفكر ١٩٩٤م.

يقوله والاستشهاد لصحة ما يقول استدعى لونا بلاغيا وطلبه فى الحال- غير مفرق بين كونه من البديع أو من المعاني والبيان ،لكنه تحدث عنه معضدا كلامه بكثير من أشعار الفحول، ومزينا آراءه بآيات من الذكر الحكيم.

فالتقديم عنده كالسجع ما دام كل منهما يخدم غرضه وفكره ، فلم ينظر الشيخ خلفه ليدرك أن بعض الفنون قد أشبعت بحثا فهجرها لذلك- كما زعم الدكتور نايل- مع تقديرنا لسيادته- ولو صح ما قاله الدكتور نايل فى ذلك لهجر التشبيه والاستعارة ولم يشر إليهما لكونهما من أكثر المسائل البلاغية دراسة قبل الشيخ الإمام ، وهما عنده وعند غيره من البديع – أيضا- ومع ذلك نجد صاحب الأسرار والدلائل يتحدث عنهما فى كتابيه بالتفصيل ويشقق الحديث عن كثير من أنواعهما، ليس لشيء سوى أن الحديث عنهما سيخدم قضيتيه، فكلما استدعى الأمر الحديث عنهما طلبهما فى الحال .

وأيما كان المر فلا مفر من الاعتراف أن علم البديع عند الشيخ الإمام لم يكن وقد ولد بعد، وأن ما ذكر من فنونه كان خدمة لتأليفه ، وأنه لم يفرق بين علوم البلاغة الثلاثة.

خلاصة هذا الفصل

ظهر بما لا يدع مجالا للشك الغرض من المؤلفات التي ألفت قبل السكاكي، وأنها كانت تخدم قضايا نقدية ،ولم يكن هناك أي قصد لذكر الفنون البلاغية وإنما كانت وسيلة لخدمة بعض القضايا كقضية اللفظ والمعنى وقضية الإعجاز ،وغيرها من القضايا ، على ما مر.

الفصل الثاني

علم البديع عند السكاكي

غرضنا من هذا الفصل:

أردنا من هذا الفصل تبرئة العلامة السكاكي من تهمة فصل البديع عن أخوية وتذييله له فى آخر البلاغة وجعله بمثابة العرض الذي لا يعول عليه والمحسن الذي لا قيمة له إلا التزيين.

ليس غرضنا من هذه السطور الكلام عن حياة السكاكي والتعريف به وبعصره، فإن هذا يعد من العبث الذي لا طائل منه، فكم من كتب تحدثت عن ذلك وفصلت القول عن حياته وتأخره فى تحصيل العلم والقصة المشهورة فى ذلك.

وإنما غرضنا أن نبين أن هذا الرجل من أكثر العلماء الذين ظلموا واتهموا باطلا ، فمجرد ذكر اسم السكاكي أمام البعض يُعد نقيصة وتهمة، فما بالك إن أردت الحديث عن جهوده وآرائه وأفكاره.

لقد قمت بتحقيق كتاب"الأطول" للعصام فى مرحلة الدكتوراه ،والعلامة العصام تلميذ مخلص السكاكي وكثيرا ما دافع عنه، وكثيرا ما دخل فى جدال ونقاش مع التفتازاني من أجل الانتصار للسكاكي.

وأنا أزعم أن صاحب الأطول -يعد من وجهة نظري- مدرسة فى البلاغة ، فهو العالم الذي لا يبارى ، والذي يبحث دائما عن كل جديد، فهو كثيرا ما يذم التقليد. فما بالك وهذا هو التلميذ الذي كثيرا ما كان يفخر بأستاذه السكاكي.

لقد بعث العصام فى نفسي حب السكاكي، وحثني على معاودة قراءة المفتاح ،فعكفت عليه أقرأه مرة ، وأعاود قراءته أخرى، وفى كل مرة أجدني أقف على ما لم أعثر عليه من قبل.

إن هؤلاء الشراح الذين قاموا بقراءة المفتاح وشرحه والتحشي عليه – وهم كثر- لم يكونوا بهذه الغفلة ، حتى نلوم عليهم ونتعجب من إهدار وقتهم في ذلك.

فلم يكن الشيرازي والتفتازاني والسيد الشريف والعصام والقزويني، وغيرهم كثيرون إلا ويعلمون جيدا قيمة السكاكي ومفتاحه، ولذا عكفوا على قراءته وشرحه وإبراز جهده.

إن قراءتي لكتاب مفتاح العلوم للسكاكي وشروحه قد أظهرت معدن هذا العالم ونفاسته وندرته.

ولقد تعجبت كثيرا حينما اطلعت على رسالتيّ الدكتور/ أحمد مطلوب عن السكاكي وتلاميذه، فقد قرأت لسيادته كتاب (البلاغة عند السكاكي) فى الماجستير، و(القزويني وشروح التلخيص)فى الدكتوراه ،وكيف أن الدكتور مطلوب قد جنى على هذه المدرسة برمتها، ووصفها بالجهل والتعقيد ، بل والخطأ أحيانا.

أقول هذا وأنا على علم أن الدكتور مطلوب من أوائل الذين تحدثوا عن السكاكي وشراحه وتلاميذ، لكن سيادته لم يترك عيبا إلا ونسبه لهذه المدرسة.

فهل يعقل أن يقول الدكتور مطلوب عن العصام:

" ويتصف الشرح (الأطول) بعد هذا كله، بأنه ركيك العبارة ، فيه أخطاء لغوية ونحويه كثيرة، وفيه تعقيد ، وقد فاق التفتازاني وأضرابه فى هذا"(١).

هل يعقل مثل هذا الكلام ، وهل يمكن أن يقال مثل هذا على التفتازاني والعصام وهما من أشهر من كتبوا فى النحو واللغة ، وقد شرح كل منهما كتب أفذاذ فى النحو كابن الحاجب، وهل نسى الدكتور مطلوب أن هناك ما يسمى بالخطاطين والكتبة لهذه المخطوطات آنذاك، وأن هناك ما يسمى بالسقط والحذف.

ولم يسلم العلامة السكاكي من هذا، ففي أول رسالة الماجستير وعنوانها: (البلاغة عند السكاكي) يقول سيادته: "والفصل الثاني فى جهوده البلاغية ... وقد تبين لي أن جهوده لم تكن عظيمة إلا فى ناحيتين هما: تحديد مصطلحات البلاغة تحديدا جامعا مانعا، والتبويب والتقسيم ، أما آراؤه البلاغية فلم تكن كثيرة، وليس لها أهمية كبيرة"(٢).

هكذا يطلق القول دون تمحيص وقراءة وصبر، هكذا يتهم مدرسة بأكملها بالخطأ والجهل ويسلبها كل فضيلة.

(١) القزويني وشروح التلخيص دكتور /أحمد مطلوب ص ٦٠٠- ط بغداد - دكتوراه.
(٢) البلاغة عند السكاكي- دكتوراه أحمد مطلوب ص ٢٧، ٢٨- ماجستير.

وأقول لسيادته: إذا كان هذا هو رأيك فلم أقدمت على دراسة كتابين من هذه المدرسة، وإذا كنت قد اكتشفت ذلك بعد دراسة الكتاب الأول، فلم أقدمت على الثاني؟!

إن الدكتور مطلوب هو الذي جنى على البلاغة والبلاغيين حينما نفّر جيل بأكمله من قراءة مثل هذه الكتب ،وأنها لا تربى ملكه ولا ذوق.

ويكفى رد الدكتورة سهير القلماوي، وقد أشرفت على رسالة الدكتور مطلوب فى الدكتوراه، تقول فى مقدمه الرسالة:

"لقد ظلم أحمد مطلوب السكاكي نوعا ما حينما جعله المسئول عن جفاف هذه الدراسة التي نتجت عن جفاف الكتاب نفسه، ولكن الواقع أن البلاغة والنقد الأدبي لابد أن يمر فى هذه الأطوار دائما ، بداية فطرية قوية مبعثرة، ثم دراسة حية قوية مثمرة ، وأخيرا خلاصة وتفنين وتقعيد جاف يؤدى بحيوية النظرية أو الفكرة أو الناحية المدروسة....

إن السكاكي قدم فى عصره – وبكل إخلاص العالم الدائب المتأثر بروح العصر، وما كان له إلا أن يتأثر –أقصى ما يمكن أن يقدمه عالم دارس فى سبيل علم من العلوم(١).

ولقد تسلل اليأس والإحباط إلى نفسي من كثرة ما قرأت من نقد للعلامة السكاكي فى مفتاحه بصفة خاصة ومن تشويه لمدرسته بصفة عامة، ولولا أنى قد عكفت على هذه الكتب والشروح والحواشي وقد قرأت المفتاح مرات ومرات لوقعت فيما وقع فيه غيري من هجوم أعمى على السكاكي ومدرسته دون قراءة لهذه الكتب.

فلقد لاحظت أن من يهاجم هذه المدرسة يعتمد على الكتب التي نقدت السكاكي ومدرسته فيقرأها دون أن يكلف نفسه عناء القراءة للكتاب نفسه.

لكن ما كان يخفف عنى أنى كنت أقرأ بين الفينة والفنية بعض سطور أو صفحات لعلماء لهم قدرهم ممن يغارون على العلم ، فقد كنت أجدهم ينصفون السكاكي ومدرسته.

---

(١) من مقدمة الدكتوراه سهير القلماوي فى رسالة الماجستير للدكتور أحمد مطلوب (البلاغة عند السكاكي) ص١٢ .

فقد أهداني الأستاذ الدكتور فرج محمد فرج كتابا قد طبع سنة ١٩٨٩ لأستاذنا الأستاذ الدكتور/ فوزي السيد عبد ربه ،عنوانه: (إعجاز القرآن ونظمه) عند السكاكي.

فأمسكت به وقرأت الصفحات الأولى منه، فتملكني الحزن والفرح فى آن واحد، فقد حزنت على عدم وقوع هذا الكتاب القيم تحت يدي من قبل- وأنا المنقب دوما عن الدرر-، فلعل التقصير منى.

وفرحت وانتشيت حينما ألفيت أستاذنا قد أنصف السكاكي كل الإنصاف وأثبت بالدليل كيف أن السكاكي قد ألف كتابه من أجل إعجاز القرآن، ويكفى أن نقرأ لسيادته فى مقدمة كتابه:

"إننا جميعا نعلم مكانة السكاكي فى تاريخ البلاغة ، فهو يعد خاتم المدرسة الكلامية أو العلمية فى دراسة البلاغة، وقد أخذت البلاغة صورتها النهائية على يديه، وأصبحت علما مميزا مستقلا عن سائر علوم العربية...

إن اقتطاع جزء من المفتاح ظلم كبير للعمل وصاحبه ، وإبعاد له عن الهدف الذي وضع من أجل كتابه، ومن حق السكاكي ألا تقطع عمله، وإنما تنظر إليه على أنه جسد واحد، وكل لا يتجزأ ، وأن تربط هذه النظرة بين العمل والهدف الذي وضع من أجله(١).

وقد قرأت الكتاب من أول صفحة فيه ولم أستطع تركه إلا بعد أن انتهت منه، وهو بحق جهد طيب، ولست أنا من يحكم بما فى الكتاب من جهد، إذ أنا الفقير فى فن البلاغة وسيادته العالم الكبير، وأنا تلميذ وسيادته الأستاذ، لكنى أحسست بعد قراءة الكتاب أنى لم أكن مخطئا فى حكمي على السكاكي ومدرسته وإنصافي لها.

ولى مع كتاب السكاكي وقفه طويلة فى بحث عنوانه (قراءة جديدة فى كتاب المفتاح للسكاكي).

(١) كتاب إعجاز القرآن ونظمه عند السكاكى – تأليف أستاذنا الأستاذ الدكتور فوزى السيد عبد ربه –ص٧- ط١ ١٩٨٩م.

علم البديع عند السكاكي

كلمات البلاغيين عن البديع عند السكاكي:

١- يقول الدكتور أحمد أبو موسى فى كتابه (الصبغ البديعي):

"... إلا أننا نلحظ ها هنا أن السكاكي- وقد فصل بين علمي المعاني والبيان، وأطلق عليهما هذين الاسمين- لم يعرض لألوان البديع على أنها علم مستقل عن العلمين، بل أنها تشارك مسائلها فى تزيين الكلام بأبهى الحلل والوصول به إلى أعلى درجات التحسين، ولم يشر السكاكي إلى أن هناك فرقا بين هذه الألوان وبين غيرها من مباحث هذين العلمين.

وبعد أن عرض لصنيع السكاكي يقول:

تلك هي ضروب البديع المعنوية ساقها سوقا موجزا ، اكتفى فيه بتحديدها وإردافها وإزجائها بمثال واحدا ومثالين، دون أن يشير كما أشار عبد القاهر أو أبو هلال مثلا إلى أسرار الأساليب ، وتبين جمالها وروعتها.

ثم يقول : على هذا الوجه الذي رأيت عرض السكاكي للبديع وقسم ألوانه إلى قسمين : معنوي ولفظي ، وهو مسبوق بهذا التقسيم وبتلك الألوان.

ويقول: إن السكاكي أول جان على هذه العلوم بسلاح المنطق والفلسفة على هذا الوجه المسرف الذي رأينا بذوره الأولى عند قدامة ابن جعفر فى نقد الشعر، فأمعن فيه السكاكي، واستحلى مذاقه حتى ودعت البلاغة عصرها الذهبي الحافل بالذوق الأدبي بانطواء صفحة أستاذها الأول والأخير عبد القاهر الجرجاني"(١).

٢- يقول الدكتور أحمد مطلوب:

"وكانت جهود السكاكي فى البديع ترتيبا لمسائلة وفصله عن المعاني والبيان ، وتقسيمه إلى ما يتعلق بالمعنى وإلى ما يرجع إلى اللفظ، أو إلى محسنات معنوية ومحسنات لفظية.

(١) الصبغ البديعي فى اللغة العربية- د/أحمد إبراهيم موسى ص ٢٤٧ وما بعدها.

ولكن هذا التقسيم- كما ذكرنا- لم يكن فى الواقع إلا تمحلا وإغراقا فى التقسيم ، فليس للمحسن أو البديع معنى ما لم يقصد فيه إلى معنى خاص وغرض معين.

أما الموضوعات فقد قسمها إلى أنواع كثيرة ، ولم يكن السكاكي أول من قام بهذا فالتقسيم معروف منذ الجاحظ والمبرد....

ثم يقول: ... ولكن السكاكي كان مولعا بتطبيق مقاييس بعيدة كل البعد عن الفن الأدبي، فجاء بحثه بهذا الشكل يدعو إلى النفور"(١).

٣- ويقول الأستاذ أحمد مصطفى المراغي:

" لا وجه لتقسيمه علوم البلاغة أقساما ثلاثة، ولا لجعله تحسين البديع عرضيا لا ذاتيا ، فلا نعلم أحدا سبق السكاكي إلى قسمة علوم الفصاحة الأقسام الثلاثة المعروفة ، ولا نرى لهذا التقسيم وجها صحيحا ولا مستندا من رواية ولا دراية ، فليس هناك جهة للتمايز تفصل كل علم عن قسيميه، ولا فى أغراض كل علم ولا فى موضوعه ما يجعله وحده مستقلة عن العلمين الآخرين فى بحوثه ومسائله حتى يمكن الناظر أن يقنع بوجاهة هذا التقسيم ويبرهن على صحته ، بل على العكس نرى بينها اتصالا وثيقا فى الأغراض والمقاصد ، واتحادا فى جهة البحث، فلا يمكن فصل بعضها عن بعض ، وإن أمكن فعلى نحو آخر ما ذكره السكاكي ، ومن اقتفوا أثره، وساروا على سننه دون أن يدلوا بحجة ناصعة.

ويقول بعد ذلك بسطور:

إن التقسيم إلى معان وبيان وبديع لم يقل به أحد قبل السكاكي إذ، لم يصرح بعزوه لأحد(٢).

٤- ويقول أستاذنا الدكتور بدوى طبانة:

"... وألحق بهما- أي المعاني والبيان- صنفا آخر، وهو النظر فى تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق، إما بسجع يفصله ، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو

(١) البلاغة عند السكاكي د/أحمد مطلوب ص ٢٩٢ ماجستير.

(٢) تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها- تأليف أحمد مصطفى المراغي ١١١- ط مصطفى البابي الحلبي.

ترصيع أو تورية عن المعنى المقصود بإبهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما، وأمثال ذلك، ويسمى عندهم : (علم البديع) الذي يضم وجوها مخصوصة كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام، وقد جعلها السكاكي قسمين : الأول منها يرجع إلى المعنى ... والقسم الآخر يرجع إلى اللفظ.

ثم يقول سيادته بعد ذلك بسطور:

والواقع أنه لم يفسد البلاغة العربية أو البيان العربي مثل تمحيص السكاكي وتهذيبه وترتيبه ، الذي مجده به ابن خلدون...

ولسنا نعرف السحر العجيب الذي سحر العلماء وفتنهم بكتاب السكاكي فجعلهم ينسون أنفسهم ، وينكرون ملكاتهم ليسيروا فى ركاب السكاكي وفى قيد كتابه ، حتى يجعلوه القطب الذي يدورون حوله؟!(١).

(٥) ويقول أستاذنا الدكتور / محمد نايل

"والذي يعنينا هنا أن السكاكي فى المفتاح والخطيب ومن بعد الخطيب قد توافقوا على توزيع البديع بين ثلاثة أنحاء، فجعلوا منه قسما فى علم المعاني، وقسما هو (علم البيان) وخصوا الثالث باسم (البديع).

ثم يقول سيادته:

..... وأما الثالث فما بقى بعد هذين مما قسموه إلى محسن لفظي وآخر معنوي.....

ونحب أن نسارع هنا إلى أن نقول إن ذكرة من الفلسفة والكلام هي التي سيطرت على هذا التقسيم ، ثم تحكمت فى نتائجه كل التحكم، وتلك هي نظرية الذات والعرض، فقد جعلوا للكلام حسنين : حسنا ذاتيا ، وحسنا عرضيا، وأن الأول ما لا توجد البلاغة بدونه، وأن الثاني ما جاء بعد تحقق الأول، وكان زائدا فى الكلام لا يضيره أن لا يكون فيه .

ثم يؤكد على كلامه من كتاب المفتاح للسكاكي فيقول:

والسكاكي – وهو إمام هذا العصر – لم يقع فى فكرة الذات والعرض صراحة إلا أن كلامه يدل عليها إيماء وتلويحا ؛ لأنه بعد أن فرغ من علمي المعاني

(١) البيان العربي د/ بدون طبانة ص ٣٣٥ ط ٧ ١٩٨٨م.

والبيان ، قال: (وإذ تقرر أن البلاغة بمرجعيها، وأن الفصاحة بنوعيها ، مما يكسو الكلام حلة التزيين، ويرقيه أعلى درجات التحسين، فهاهنا وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام، فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها، وهى قسمان: قسم يرجع إلى اللفظ، وقسم يرجع إلى المعنى...)(١).

ثم يعلق على ذلك بقوله: فإذ قد صرح بأن مرجع البلاغة إلى علمي المعاني والبيان، وأن البديع قد يصار إليه القصد التحسين فقط، فقد لوح للقوم بعده بأن البديع عرض زائد (قد يصار إليه).

وهؤلاء –والكلام ما زال لسيادته– قد فهموا عنه ذلك، ومضوا على ما فهموا، بل لقد قال فى تعريف البلاغة :إنها بلوغ المتكلم فى تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها ،فقد بان منزع القوم فيما فعلوا ؛لأن البديع لم يصبح من البلاغة بعد هذا التعريف ،وذاك التقسيم"(٢).

تعليقنا على هذه الآراء :

وأقول بعد هذا العرض لآراء بعض البلاغيين وموقفهم من بديع السكاكي لفت نظري أمران:

الأول: أنها آراء خرجت من علماء لهم قدرهم وقيمتهم فى الدرس البلاغي، ومؤلفاتهم تشهد بذلك فى بناء صرح البلاغة، ولهم جهد كبير وملموس فى تطور الفكرة البلاغية.

الثاني: تأثر بعضهم ببعض واستنادهم فى آرائهم على بعض.

والمهم أن هؤلاء العلماء لهم قدرهم ومنزلتهم عندي، فأنا مازالت طالب علم أبحث وأنقب فى كل مكان ، ولولا أمانة البحث العلمي لما تعرضت لهذه الآراء بالنقد، فلا يجب أن يفهم مناقشتي لهم من باب التطاول أو التجريح

(١) المفتاح ص ٢٢٤ .

(٢) ينظر تفصيل ذلك فى البلاغة بين عهدين- د/ محمد نايل أحمد ص ٢٥٦- ط دار الفكر العربي.

فأنا أقل من ذلك بكثير، فلست أكثر من طالب عالم وهم أساتذتي تتلمذت على مؤلفاتهم واستفدت منها،

ولولاها وغيرها من المؤلفات فى عصرنا ما فهمنا كتب غيرهم ممن سبقوهم، فقد كانوا دوما يوضحون كل غامض فى كتب القدماء يشرحونها تارة، ويدرسونها أخرى، وقد قضوا عمرهم كله فى القراءة والبحث والتأليف.

قلت هذا وأطلت فيه – على غير عادتي – حتى لا أتهم بالتطاول ، لكنى فقط سأرد أوضح وأناقش وأنقد إن استدعى الأمر ذلك ،لا لشيء إلا لأجل البحث العلمي ، **فأقول:**

لقد اتفق علماؤنا فى آرائهم السابقة على عدة أمور أوجزها فى الآتي:

أولا: عدم استقلالية علم البديع عند السكاكي.

ثانيا: جعل السكاكي علم البديع من المحسنات العرضية.

ثالثا: تقسيمه هذه المحسنات إلى لفظي ومعنوي، وهو تقسيم جائر ومغلوط.

رابعا: تقصير السكاكي فى الاستشهاد لعلم البديع بشواهد تثريه كأخويه – المعاني والبيان.

خامسا: السكاكي أول من جنى على هذه العلوم– ومنها البديع– بسلاح المنطق والفلسفة.

سادسا: كتاب مفتاح العلوم للسكاكي يدعو إلى النفور، فلم يكن له سوى الترتيب والتبويب.

سابعا: تقسيم البلاغة إلى معان وبيان وبديع لم يقل به أحد قبل السكاكي.

ثامنا: لم يفسد البلاغة العربية مثل تمحيص السكاكي وترتيبه وتبويبه .

تاسعا: تأثر السكاكي بنظرية الذات والعرض عند الفلاسفة

عاشرا: تعريف السكاكي للبلاغة أكبر شاهد على خروج علم البديع منها.

والملاحظ على هذه الآراء أنها متناقضة إلى حد كبير ، فهل قسم السكاكي البلاغة إلى معان وبيان وبديع كما يزعم البعض؟!

أو هل أهمل السكاكي علم البديع وأخرجه من البلاغة؟!

لقد قرأت كلام البلاغيين السابق مرات ومرات، فوجدت تضاربا عجيبا وتناقضا واضحا، بل لقد ظهر عندي تقصيرهم فى فهم كلام السكاكي، ولعل سبب ذلك يرجع إلى أمور منها:

١-عدم قراءة كتاب (مفتاح العلوم) قراءة متأنية.

٢-اتكاؤهم على ما كتبه غيرهم.

٣-اقتطاعهم عبارة أو جزء من كلامه والاستشهاد به على رأيهم .

ويجب علينا الآن أن نسارع فى مناقشة هذه الآراء والرد عليها فى هدوء حتى لا نتهم بإلقاء التهم جزافا، مع التنبيه على أننا نناقش أفكارا لا أسماءا – كما تعلمنا من أساتذتنا- فأقول فى إيجاز يعقبه تفصيل:

أما أولا: (عدم استقلالية علم البديع عند السكاكي) فهذا كلام حق وصدق؛ لأنه وببساطة شديدة لا يوجد عند السكاكي ما يسمى بعلم البديع، بل لا يوجد عنده سوى (المعاني والبيان) وسنشبع هذه المسألة بسطا بعد قليل.

وأما ثانيا: (جعل السكاكي علم البديع من المحسنات العرضية) فليس هذا بصواب ، حيث لم نجد عند السكاكي تقسيم للمحسنات إلى ذاتية وعرضية، وسندلل على ذلك.

وأما ثالثا: (تقسيمه هذه المحسنات إلى لفظي ومعنوي وهو تقسيم مغلوط)، فنقول : إن السكاكي لم يقسم المحسنات إلى: لفظي ومعنوي ، لكنه قسم هذه الوجوه المخصوصة التي كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام ،والفرق شاسع سنوضحه بعد قليل.

وأما رابعا: (تقصير السكاكي فى الاستشهاد لعلم البديع كأخويه) ، فنقول : علينا أن نعود إلى عبارة السكاكي : (فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها) فهذه العبارة تفيد أمرين: أولا : الإشارة إلى هذه الأمور فى إيجاز لأنها ليست من علمي المعاني والبيان،

وثانيا: عدم حصر هذه الوجوه ، بدليل قوله فى نهاية عرضها :"فلك أن تستخرج من هذا القبيل ما شئت ، وتلقب كلا من ذلك بما أحببت"(١).

(١) المفتاح ص ٢٣٦ .

وأما خامسا: السكاكي أول من جنى على هذا العلم بسلاح المنطق والفلسفة فنقول : لقد ألف السكاكي كتابه في القرن السابع الهجري ، وهو عصر التحديد والتقنين لمعظم العلوم ، فجاء كتابه استجابة لعصره، تقول الدكتورة سهير القلماوي فى مقدمة كتاب البلاغة عند السكاكى:

" فالسكاكي لم يفعل أكثر من أن لبّى حاجة ملحة لأهل زمانه" وتقول فى موضع آخر: "إن السكاكي قدم فى عصره -وبكل إخلاص العالم الدائب المتأثر بروح العصر، وما كان له إلا أن يتأثر – أقصى ما يمكن أن يقدمه عالم دارس فى سبيل علم من العلوم.

لقد كان عصره عصر جمع وتبويب، وعصر تقعيد وتقنين، فجمع فنون البلاغة وكانت أشتاتا مفرقة فى كتب كثيرة، منها ما تعرض لجملة من مسائلها، ومنها ما تعرض لواحدة ، ولكن دون تبويب ، وأكثرها تعرض من وجهة نظر عقائدية تفسيرية لنص القرآن الكريم من حيث مجازه خاصة ،أو إعجازه بوجه عام، وجاء السكاكي متأثرا بأقرب هؤلاء الدارسين منه عهدا بعبد القاهر الجرجاني، فرتب وبوب حتى نسب العلم إليه(١).

ألا يكفى هذا الكلام فى الرد على اتهام السكاكي بجنايته على البلاغة بإدخاله المنطق والفلسفة فيها؟!

وأما سادسا: (كتاب مفتاح العلوم للسكاكي يدعو إلى النفور ،فلم يكن للسكاكي فيه سوى الترتيب والتبويب).

وأقول : إن كتاب السكاكي فى معظمه يدعو للفخر، ويدل على عبقرية صاحبه، وإن من يقرأ الكتاب كله لن يتردد فى إطلاق مثل هذا الحكم، فله شخصيتة وآراؤه المبعثرة هنا وهناك، ولولا ذلك لما أقدم على شرحه الشيرازي والسيد الشريف والتفتازاني وطاش كبرى زاده وغيرهم.

لا نقول ذلك لمجرد المخالفة، لكنى أزعم أنى عكفت على قراءته وشروحه، وألفيت الرجل ينتقل بخفه من باب إلى باب ومن فصل إلى فصل، لا يختل أبدا.

(١) مقدمه البلاغة عند السكاكي للدكتور مطلوب ص ١٣ .

ولنا بحث بعنوان (قراءة جديدة فى فكر الإمام السكاكي) سأبين فيه جهده وأثره الذي لا ينكر.

وأما سابعا : تقسيم البلاغة إلى معان وبيان وبديع لم يقل به أحد قبل السكاكي.

وأقول فى إيجاز شديد: ولم يقل به السكاكي- على ما سيأتي تفصيله-.

وأما ثامنا: لم يفسد البلاغة العربية مثل تمحيص السكاكي وترتيبه وأقول: إن قراءة كلام العلماء واستخراج ما فيه من درر =علم لا يؤتى لكل أحد، فإذا كان العلامة السكاكي قد قرأ كتب من سبقوه وأعاد ترتيبها على ما زعم البعض- واستخرج ما فيها من علم، فلا يجب أن يؤخذ هذا على السكاكي ،أو يلام عليه.

وبالإضافة إلى ما قالته الدكتورة سهير القلماوى فى الرد على ذلك، فإن لو لم يكن لعمل السكاكى -بترتيبه وتمحيصه قيمة لما سارت عليه الدراسات البلاغية حتى عصرنا هذا.

وأما تاسعا: تأثر السكاكي بنظرية الذات والعرض عند الفلاسفة، فإن هذا مما اعتقده البعض، فتوهم أن الحسن عند السكاكي ذاتي للمعاني والبيان، وعرضي للبديع، دون أن يكون هناك نص صريح يدل على ذلك، لكنه قال على حد زعمه وكلامه -يعني السكاكي -يومئ إلى ذلك.

عاشرا: (تعريف السكاكي للبلاغة أكبر شاهد على خروج علم البديع منها).

والأدق: أن هذا التعريف دليل على أن البلاغة عند السكاكي معان وبيان ، على ما سيأتي.

هذا هو الإيجاز، وسيتضح ما غمض من كلامنا الآن فنقول:

علم البديع وموقف السكاكي منه :

يقول أستاذنا الأستاذ الدكتور/ فوزي السيد عبد ربه " لم يكن غرض السكاكي أن يضع قواعد العلوم التي ضمنها كتابه ،فالسكاكي رجل يعرف قدر نفسه ، وقد استوعب التراث وهضمه وتمثله ، وهو يعرف أنه لن يضيف إلى هذا التراث إضافة ذات بال، كما أن قضية الإعجاز القرآني أضحت قضية

واضحة فى الأذهان، مقررة فى العقول، وقد استنفذ فيها العلماء جهدهم ، وأفرغوا كل طاقاتهم فى سبيل التدليل عليها، والتماس البراهين لها .....

كل هذا لم يكن السكاكي غافلا عنه، وربما شغله التراث بعمقه وامتداده وسعته وانتشاره ، فى الوقت الذي سيطرت عليه فكرة الإعجاز بالنظم ودلائلها وبراهينها، فأراد أن يقدم هذا القضية بأدلتها المستمدة من التراث فى صورة يعرفها العقل، كما يقر بها الوجدان، وترسخ فى الأذهان كما تمسها الأذواق والطباع.

ولن يكون له ذلك إلا بأن يلتقط من علوم الأدب ما يوصل إلى هذه الغاية، ويجعل منها أدلة على ما استقر عليه رأيه فى الإعجاز ، ورآه الوجه الصحيح الذي يكشف عن أسرار القرآن الكريم ولطائفه ، وهو نظمه الساحر وبلاغته المعجزة .

ثم يصل سيادته إلى نتيجة حتمية فيقول:

إذن القضية التي نصبها السكاكي ليقدمها فى مفتاحه ، هي (إعجاز القرآن من جهة نظمة وبلاغته)، وأصبحت هذه القضية هي موضوع كتابه وشغله الشاغل من أول كلمة فى الكتاب إلى آخر كلمة فيه"(١).

ثم يقول بعد ذلك بسطور:

"وفرق كبير بين أن يكون القصد إلى الإعجاز القرآني، فيستعان على تحقيق هذا القصد بشتى الوسائل- ومنها علم البلاغة على أهميته وخطره- وبين أن يكون القصد إلى علم البلاغة للحاجة إليه فى معرفة الإعجاز القرآني وتفسير كلام الله.

وهذا القصد الخير نجده عند كثير ممن كتبوا فى البلاغة العربية قبل أبى يعقوب، ومنهم: أبو هلال العسكرى، فقد صنف كتابه الصناعتين، وجعل موضوعه البلاغة مبينا أهميته وخطره ، والحاجة إليه فى التوصل إلى معرفة كتاب الله وبيان إعجازه"(٢).

(١) إعجاز القرآن ونظمه عند السكاكي أ.د/ فوزي السيد عبد ربه ص ٧٤ ط ١٩٨٩م.
(٢) السابق ص ٧٦ .

وهذا الكلام فى غاية الوجاهة من سيادته ، والكتاب- أعنى كتاب سيادته- برمته شاهد على أن سيادته قد استوعب ما فى المفتاح ، وأنه قد أعاد قراءته مرات ومرات.

وما يهمنا هنا أن السكاكي لم يؤلف كتابه فى البلاغة ، ولن نختلف كثيرا فى كون مقصد السكاكي فى الإعجاز أو غيره، لكنه لم يؤلف كتابا فى البلاغة، ولم يقسم البلاغة تقسيم المتأخرين.

وعد إلى عبارة سيادته: (وفرق كبير بين أن يكون القصد إلى الإعجاز القرآني ،فيستعان على تحقيق هذا بشتى الوسائل ومنها البلاغة .... وبين أن يكون القصد إلى البلاغة للحاجة إليه فى معرفة الإعجاز ".

فالبلاغة عند السكاكي لم تكن غرضا ولكنها كانت وسيلة كغيرها من العلوم الأخرى،

لكن السكاكي وقف أمامها طويلا لأهميتها وخطرها فى إثبات الإعجاز.

السكاكي فى منهجه لم يشذ عن سابقيه :

ولا أكون مبالغا إذا قلت : إن السكاكي فى منهجه لم يشذ عن سابقيه، ولو عقدنا موازنة بين (سر الفصاحة) لابن سنان الخفاجي وبين (مفتاح العلوم) لما ألفينا فرقا كبيرا بينهما فكل منهما بدأ كتابه بالحديث عن الصوت فالحرف ثم الكلمة، وختم بالتأليف.

فبينما ظل ابن سنان يبحث عن سر الفصاحة وأسباب كون الكلام فصيحا، وسلك فى سبيل ذلك كل الطرق ،حيث عرض فى مقدمة كتابه لجملة من المسائل التي تخص الحرف والصوت، ثم انتقل إلى الحديث عن الكلمة وشروط فصاحتها، وختم كلامه بالحديث عن التأليف وصحته.

ونجد العلامة السكاكي يفتتح كتابه بنفس الطريقة -لولا أنه يتحدث عن الأدب والأديب وأنواعها وكيف يكون -، ثم يبدأ كتابه بعلم الصرف ،لكنه يقول فى بداية حديثه:

"وقبل أن نندفع إلى سوق هذه الفصول فلنذكر شيئا لابد منه فى ضبط الحديث فيما نحن بصدده ، وهو الكشف عن معنى الكلمة وأنواعها"(١).

ثم يقول بعد ذلك بسطور:

"الفصل الثاني فى كيفية الوصول إلى النوعين، وهما معرفة الاعتبارات الراجعة إلى الحروف، ومعرفة الاعتبارات الراجعة إلى الهيئات ... ومساعد الحديث فيهما لا يتم إلا بعد التنبيه على أنواع الحروف التسعة والعشرين ومخارجها..." (٢).

ويظل السكاكي هكذا ينتقل من الصوت إلى الحرف ومن علم الصرف إلى علم النحو.... الخ.

وهو نفس المنهج الذي اتبعه ابن سنان الخفاجي فى كتابه (سر الفصاحة) فى القرن الخامس الهجري.

إلا أن العلامة السكاكي كان أكثر تنظيما وترتيبا، فقد ظهرت عبقريته حينما انتهى من علم النحو، حيث لم يقف طويلا أمام قسمي الصرف والنحو، فقد كانا بمثابة التمهيد لعلمي المعاني والبيان على ما سيأتي.

ولعل ما يؤكد صدق ما قلناه ،قوله فى أول قسم النحو: "اعلم أن النحو هو أن ننحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقا بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب وقوانين مبنية عليها ليحترز بها على الخطأ فى التركيب من حيث تلك الكيفية.

وأعنى بكيفية التركيب : تقديم بعض الكلم على بعض، ورعاية ما يكون من الهيئات ، إذ ذاك ، وبالكلم: نوعيها المفردة وما فى حكمها.

وقد نبهت عليها فى القسم الأول من الكتاب، وسيزداد ما ذكرنا وضوحا فى القسم الثالث إذا شرعنا فى علم المعاني"(٣).

والعلامة السكاكي يعلم أن علم الصرف مقدمة لعلم النحو، وعلم النحو سيوضح علم المعاني، وعلم المعاني يأتي بعد علم النحو .... وهكذا.

---

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ص٥ – ط الحلبي.
(٢) مفتاح العلوم ص ٦ .
(٣) مفتاح العلوم ص ٤٤ .

ولعل الغرض من هذا كله هو كما قال: (الأدب والأديب)، ولكنه يعلم أن ما يقدمه لنا ما هو إلا مفتاح ، وأنه يضع أيدينا على طريق ، ولذلك سمى كتابه :(مفتاح العلوم) ، فلم يكن مفتاحا للنحو ولا للصرف ولا للبلاغة ، لكنه مفتاح للعلوم.

السكاكي رجل برع فى منهجه كما كان الخفاجي فى (سر الفصاحة) ،والسكاكي لم يضطرب أبدا، ولم ينس أنه يؤلف كتابا يهدى المؤلف والكاتب والأديب إلى صناعة نفسه، وهكذا ابن سنان .

اتفق الرجلان فى أمور كثيرة واختلفا فقط فى النظرة العامة، فأحدهما يضع مفتاحا للأديب والآخر يضع شروطا للفصيح، لكنهما يلتقيان فى الاستعانة بعلوم اللغة كالصرف والنحو والبلاغة .

لم يكن غرضي من ذلك عقد موازنة بين الرجلين ، لكن فقط أردت أن أبين أن السكاكي لم يشذ عن سابقيه، بل لم يختلف فى تأليفه عنهما.

ولعل ما يؤكد ذلك أن السكاكي فى حقيقة الأمر لم يفصل بين علم النحو وعلم المعانى، بل إنه يعتبر علم المعاني " خاتمة لعلم النحو وتتمة له، يقول فى آخر قسم النحو:

"وإذ قد أتممنا ما أردنا فلنف بما كنا وعدنا من ختم الكلام فى القسم النحوي..." (١) ،ثم يشرع فى الحديث عن علم المعاني.

ونعود إلى ما كنا فيه فنقول:

بدأ العلامة السكاكي كتابه بقوله:"وبعد ... فإنه نوع الأدب نوع يتفاوت كثرة شعب وقلة وصعوبة فنون، وسهولة وتباعد طرفين، وتدانيا بحسب حظ متوليه من سائر العلوم كمالا ونقصانا، وكفاء منزلته هنالك ارتفاعا وانحطاطا وقدر مجاله فيها سعة وضيقا.....

ثم يقول: وقد ضمنت كتابي هذا من أنواع الأدب دون نوع اللغة ما رأيته لابد منه، وهى عدة أنواع متآخذة ، فأودعته علم الصرف بتمامه وإنه لا يتم إلا بعلم الاشتقاق... وأوردت علم النحو بتمامه ،وتمامه بعلمي المعاني والبيان... ولما كان تمام علم المعاني بعلمي الحد والاستدلال لم أر بدا من التسمح بهما،

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ص ٩٠.

وحين كان التدرب فى علمي المعاني والبيان موقوفا على ممارسة باب النظم وباب النثر ، ورأيت صاحب النظم يفتقر إلى علمي العروض والقوافي ثنيت عنان القلم إلى إيرادهما.

ثم يقول :

وما ضمنت جميع ذلك كتابي إلا بعدما ميزت البعض عن البعض التمييز المناسب، ولخصت الكلام على حسب مقتضى المقام هنالك، ومهدت لكل من ذلك أصول لائقة ، وأوردت حججا مناسبة، وقررت ما صادفت من آراء السلف قدس الله أرواحهم، بقدر ما احتملت، مع الإرشاد إلى ضروب مباحث قلت عناية السلف بها، وإيراد لطائف مفتنة ما فتق أحد بها رتق أذن.

وها أنا ممل حواش جارية مجرى الشرح للمواضع لمشكلة، مستكشفة عن لطائف المباحث المهملة، مطلعة على مزيد تفاصيل فى أماكن تمس الحاجة إليها، فاعلا ذلك كله عسى إذا قيض فى اللحد المضجع أن يدعى لي بدعوة تسمع"(١) انتهى كلام السكاكي.

وأقول : لم يكن منهج السكاكي مبهما يحتاج إلى توضيح لكن صاحب المفتاح كان واضحا ومنظما إلى درجة جعلت كل من يأتي بعده يشيد بذلك.

العلامة السكاكي رأى أن كتابه (مفتاح العلوم) قد تضمن من أنواع الأدب ما لابد منه.

"وقد ذكر القدماء أن علوم الأدب ثمانية: اللغة، والنحو والتصريف، والعروض والقوافي، وصنعة الشعر، وأخبار العرب وأنسابهم"(٢).

لكن السكاكي اختار منها ما لابد منه- على حد قوله- وأخرج منها نوع اللغة.

وقد كان صاحب المفتاح دقيقا حين قال: (وهى عدة أنواع متآخذة)، وهو يعنى بذلك: مترتبة بعضها على بعض ، كل منها يعتمد على الآخر ، فلا يمكن الفصل بينها ، كما لا يمكن التقديم والتأخير فيها، بل لابد من البدء بعلم الصرف، والانتهاء بعلمي العروض والقوافي.

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ص ٣، ٤ ط البابي الحلبي.
(٢) نزهة الألباء لابن الأنباري ص ٦٠ ، والأشباه والنظائر للسيوطي ص ٦

ولذلك نلاحظ تكرار كلمة (تمامه) عنده، فيقول: (فأودعته) علم الصرف بتمامه.... وأوردت علم النحو بتمامه، وتمامه بعلمي المعاني والبيان .... ولما كان تمام علم المعاني بعلمي الحد والاستدلال لم أر بدا من التسمح بهما).

والعلامة صاحب المفتاح كأنه فى عبارته السابقة يجيب على سؤال سيطرحه كل من يأتي بعده، ويعلم أن هناك خلافا سيحتدم حول إقحام (الاستدلال) فى الأدب، أو البلاغة ؟

وهو يعي ذلك جيدا ويدركه ، ولذا نجده يعبر بقوله: (لم أر بدا من التسمح بهما)، وكأنه لا مفر من التعرض لهما ، وإن كانت عبارته توحي بأنه لن يقف طويلا أمام هذا المبحث ، لعلمه أنه خارج عن علم الأدب والبلاغة، ولولا ضرورة ذلك ما أقدم عليه، ولولا أن (علم الاستدلال) متمم لعلمي المعاني والبيان ،وموضح لبعض المبهمات هناك ما تطرق له ، ولا عرض لمباحثه.

وأيا كان الأمر وسواء وافقنا على ذلك أو خالفناه فهذا رأيه وذلك منهجه لا مفر من قراءته وتدبره لعله على صواب .

وهو يدرك أن الاستشهاد لعلمي المعاني والبيان معتمد لا محالة على الشعر والنثر، وأن صاحب النظم- أعنى الشعر- مفتقر لعلمي العروض والقوافي، ولذا تعرض لهما.

وقد عرض منهجه على النحو التالي:

١ – تمييز البعض عن البعض التمييز المناسب، فلم يخلط بين هذه العلوم ، لكنه فقط رتبها الترتيب المناسب الذي يحقق منها علما فى النهاية هو (علم الأدب) على حد قوله.

٢ – لخص الكلام على حسب مقتضى الحال، فلم تكن هذه العلوم عنده على درجة واحدة من الدراسة، لكنه كان يقف طويلا مع بعضها، ويعرض لغيرها فى إيجاز شديد ، كل على حسب مقتضى الحال.

٣– كان يقف عند كل علم ليمهد لذلك ببعض المباحث التي تساعد على فهمه، فحينما تعرض للقسم الأول وهو علم الصرف – مثلا– قال:

"وقبل أن نندفع إلى سوق هذه الفصول ، فلنذكر شيئا لابد منه فى ضبط الحديث فيما نحن بصدده ..." ثم مهد لذلك بالحديث عن الصوت والحرف والكلمة.

٤- اعترف السكاكي باعتماده في كثير من الآراء على السلف، لكنه يشير إلى اهتمامه بمباحث قلت عناية السلف بها، وأنه أورد لطائف لم يتنبه إليها من سبقه.

يقول الدكتور أكرم عثمان: "لقد رأى السكاكي التبعثر وعدم التكامل فى حصر المادة عند غيره ، فأراد أن يكون هذا الكتاب جامعا للعلوم.

رأى عبد القاهر الجرجاني يؤلف (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) ويبحث فى البلاغة ومنها (نظرية النظم) التي جعلها قائمة على النحو.

ورأى الزمخشري يؤلف (المفصل) فى النحو، يضمنه النحو والصرف.

ووجد الرازي يؤلف (نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز) وهو كتاب فى البلاغة والفصاحة والإعجاز ، ومخارج الحروف .

وقبل كل هذا رأى ابن سنان الخفاجي فى كتابه (سر الفصاحة) يجمع فيه مادة من اللغة (مواد بلاغية) وأخرى فى عيوب القافية، ويختم كتابه بالوسائل التي يحتاج إليها الأديب.

عرف السكاكي كل هذا فاتجه إلى تأليف (مفتاح العلوم) وجعله جامعا مانعا مرتبا لعلوم العربية بأسلوب يختلف عن غيره، وبناء يغاير ما سلفه"(١).

وهو كلام له وجاهته لكن لا يمكن اختزال جهد السكاكي فى كتابه (مفتاح العلوم) فى جمع ما فى هذه الكتب وترتيبها ولا يمكن إهمال إضافاته وهى كثيرة وإغفالها أو التغافل عنها.

علم البديع:

لقد كان السكاكي واضحا فى منهجه عندما قسم كتابه إلى ثلاثة أقسام ، وعبارته فى ذلك هي "وجعلت هذا الكتاب ثلاثة أقسام : "القسم الأول فى

(١) تحقيق كتاب (مفتاح العلوم) للدكتور أكرم عثمان – هامش ص ٢٣- ط ١٩٨١م.

علم الصرف ، والقسم الثاني: فى علم النحو، والقسم الثالث: فى علمي المعاني والبيان"(١).

وقد بين سبب هذا التقسيم بقوله:

"والذي اقتضى عندي هذا هو أن الغرض الأقدم من علم الأدب لما كان هو الاحتراز عن الخطأ فى كلام العرب ، وأردت أن أحصل هذا الغرض، وأنت تعلم أن تحصيل الممكن لك لا يتأتى بدون معرفة جهات التحصيل واستعمالها، لا جرم أنا حاولنا أن نتلو عليك فى أربعة الأنواع مذيلة بأنواع أخر مما لابد من معرفته فى غرضك لتقف عليه ثم الاستعمال بيدك.

وإنما أغنت هذه ؛ لأن مثار الخطأ إذا تصفحتها ثلاثة: المفرد ، والتأليف، وكون المركب مطابقا لما يجب أن يتكلم له، وهذه الأنواع بعد علم اللغة هي المرجوع إليها فى كتابه ذلك ما لم يتخط إلى النظم.

فعلما الصرف والنحو يرجع إليهما فى المفرد والتأليف ، ويرجع إلى علمي المعاني والبيان فى الأخير.

ثم بين سبب ترتيب كتابه فقال:

ولما كان علم الصرف هو المرجوع إليه فى المفرد، أو فيما هو فى حكم المفرد، والنحو بالعكس من ذلك كما ستقف عليه، وأنت تعلم أن المفرد متقدم على أن يؤلف ، وطباق المؤلف للمعنى متأخر عن نفس التأليف، لا جرم أنا قدمنا البعض على هذا الوجه وضعا لنؤثر ترتبا استحقته طبعا".

إذن فالأقسام عند السكاكي ثلاثة كما نص هو: "وجعلت هذا الكتاب ثلاثة أقسام : القسم الأول فى علم الصرف، والقسم الثاني فى علم النحو، والقسم الثالث فى علمي المعاني والبيان".

أين علم البديع إذن؟!

لقد فتشت فى كتاب مفتاح العلوم وقرأته من أوله إلى آخره فلم أجد نصا واحدا للسكاكي يدل على أنه يعترف بالبديع علما، حتى نزعم تقسيمه البلاغة إلى معان وبيان وبديع .

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ص٥ - ط الحلبي.

ثم نبالغ فى زعمنا ونتهم العلامة السكاكي بتذيل علم البديع عنده علوم البلاغة.
ولا نقف عند هذا بل نصدق أنفسنا فى زعمنا وندعى إهمال السكاكي لمباحث البديع وعدم الاهتمام بها اهتمامه بعلمي المعاني والبيان.
بل وأنه حاول التفرقة بين العلوم الثلاثة ولم يكن عادلا فى تقسيمه الحسن عليها حينما جعل حسن المعاني والبيان ذاتي للبلاغة وحسن البديع عرضي.
أقول: هذا عجيب وغريب أن نرى ما رأينا، وأن نتهم الرجل بهذه التهم وهو منها بريء.

ولم يكن هذا هو النص الوحيد الذي يؤكد على أن البلاغة عند السكاكي (معان وبيان) ، وإنما كان السكاكي يذكرنا من حين لآخر بذلك.
يقول فى أول القسم الثالث: " القسم الثالث من الكتاب فى علمي المعاني والبيان، وفيه مقدمة لبيان حدي العلمين والغرض فيهما، وفصلان لضبط معاقدهما والكلام فيهما"(١).
أعتقد أن ألف الاثنين دليل واضح على قولنا.

ثم يقول بعد ذلك:
"اعلم أن علم المعاني هو : تتبع خواص تراكيب الكلام .....
وأما علم البيان: فهو معرفة إيراد المعنى الواحد فى طرق مختلفة..."(٢).
وليس هذا فحسب بل نجده فى آخر بحث علم المعاني يقول:
"ولكن هذا آخر كلامنا الآن فى علم المعاني، منتقلين عنه إلى علم البيان بتوفيق الله تعالى وعونه، حتى إذا قضينا الوطر من إيرادنا منه لما نحن له استأنفنا الأخذ فى التعرض للعلمين لتتميم المراد منهما بحسب المقامات إن شاء الله تعالى"(٣).

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ص ٩١ .
(٢) السابق ص ١٨٢.
(٣) مفتاح العلوم ص ٢٢٧ .

ويعرف البلاغة بقوله:
"البلاغة هي بلوغ المتكلم فى تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفيه خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها"(١).
ويقول بعد ذلك بصفحات : "وإذ قد تحققت أن علم المعاني والبيان هو معرفة خواص تراكيب الكلام ، ومعرفة صياغات المعاني ليتوصل بها إلى توفيه مقامات الكلام حقها بحسب ما يفي به قوة ذكائك ..." (٢).
أين علم البديع هذا الذى أهمله السكاكي وفصله عن أخويه وهضمه حقه وجنى عليه وذيل به البلاغة وجعل تحسينه عرضيا خارجا عن البلاغة.
العلامة السكاكي كرر فى أكثر من ستة مواضع أن البلاغة : معان وبيان، ولو صح ما قالوه فلم لمْ يقل (معان وبيان وبديع)؟! وما الذي منعه من ذلك؟
ولقد تعجبت كثيرا حينما ألفيت محققي كتاب (مفتاح العلوم)يعنونون لفقرة من الكتاب بـ (علم البديع) ... هكذا يحملون عبارات السكاكي دلالات لم يردها السكاكي ولم يقصدها ، أليس من العجيب أن لا يذكر السكاكي كلمة (علم البديع) ولو مرة واحدة فى كتابه ثم نزعم أن البلاغة عنده (معان وبيان وبديع)؟!

سبب اتهام السكاكي بإهمال علم البديع:

إذن ما الذي دعا هؤلاء جميعا إلى اتهام السكاكي بهذه التهمة وهو بريء منها؟
لقد نقبت فلم أجد سوى عبارة واحدة هي التي أحدثت كل هذا اللبس وهذه العبارة هي قوله فى آخر علم البيان :
"وإذ قد تقرر أن البلاغة بمرجعيها وأن الفصاحة بنوعيها مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجاته التحسين ، فها هنا وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها القصد تحسين الكلام، فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها، وهى قسمان: قسم يرجع إلى المعنى ، وقسم يرجع إلى اللفظ ..." (٣).

(١) السابق ص ٢٣١.
(٢) مفتاح العلوم ص ٢٣٦.
(٣) مفتاح العلوم للسكاكي ص ٢٣١ ط البابي الحلبي

هذه هي العبارة التي جعلت كل من يقرأها يزعم أن الوجوه التي ذكرها السكاكي هنا إنما هي (علم البديع)، بل وليس الأمر وقف بهم عند هذا الحد بل قالوا : إن التحسين فى قوله (مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين): تحسين ذاتي؛ لأنه يختص بعلمي المعاني والبيان المستفاد من قوله: (أن البلاغة بمرجعيها).

= وأن التحسين فى قوله : (فها هنا) وجو مخصوصة كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام،: تحسين عرضي ، حيث إنه يختص بعلم البديع المستفاد من قوله (فها هنا وجوه مخصوصة) .

هكذا يطلقون القول ويحكمون على عبارة السكاكي ويفسرونها هكذا من غير دليل على كلامهم.

رحم الله العلامة السكاكي لو عاش إلى وقتنا هذا لتعجب من زعمهم هذا ومن فهم عبارته وتحميلها دلالات لا تتحملها .

والحق الذي لا مراء منه أن عبارة السكاكي واضحة لا تحتاج إلى تفسير وتأويل، فالعلامة السكاكي قد عنون القسم الثالث من كتابه بقوله:

"القسم الثالث من الكتاب فى علمي المعاني والبيان ... وفيه مقدمة لبيان حدي العلمين والغرض فيهما وفصلان لضبط معاقدهما والكلام فيهما) (١).

وبعد أن فصل القول فى العلمين أدرك أن الغاية من البلاغة بالإضافة إلى مطابقة الكلام لمقتضى الحال- هي التزيين والتحسين ، بدليل قوله: (وإذ قد تقرر أن البلاغة بمرجعيها ، وأن الفصاحة بنوعيها مما يكسو الكلام حلة التزيين، ويرقيه أعلى درجة التحسين)

ولعل مما يقوى هذا ويؤكده قوله عند تعريف علم المعاني (اعلم أنه علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام فى الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ فى تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره).

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ص ٩١ .

فالتحسين والتزيين غرض رئيس من المسائل البلاغية ، ولا يجب أن نلتفت إلى ما قيل حول تفسير هذه العبارة من بعض الشراح – على ما سيأتي-؛ لأنه تفسير فى غير موضعه.

= وأدرك بذوقه العالي وحسه المرهف وبمراجعة كتب من تقدموه أن هناك وجوها ومسائل تحقق هذا التحسين والتزيين – أيضا- وأنها كثيرة،لكنها لا تندرج تحت أي من العلمين، فأفرد الحديث عنها واستشهد لها بشواهد من القرآن والشعر.

ولو صح ما قالوه أن تزيين هذه المسائل عرضي لما استشهد من القرآن.

على أن السكاكي لم يقسم التزيين والتحسين إلى ذاتي وعرضي كما زعموا ،لكنه فقط أدرك أن الغاية من البلاغة والفصاحة وهى التزيين قد تحققت فى العلمين ، وأنها متحققة- أيضا- فى مسائل بلاغية منفردة لا يمكن إدراجها تحت العلمين، ولم يسمها (بديعا)؛ بل إن أدرج فيها مسائل من علم المعاني وذلك عند قوله:

(ومنه تقليل اللفظ ولا تقليله).... ومنه الاعتراض ، ويسمى الحشو، وهو أن تدرج فى الكلام ما يتم المعنى بدونه... ومنه الالتفات ..." (١).

ولسنا هنا بصدد مناقشته فى إقحام مسائل من المعاني فى البديع ؛لأنه لم يعنون لهذه المسائل بـ (علم البديع) حتى ننقده أو نناقشه فيما ذهب إليه، لكنه سار على درب من سبقه فى عدم الفصل بين هذه المسائل.

والعلامة السكاكي بعد سرده لهذه الوجوه المخصوصة يختم كلامه بقوله: "وأصل الحسن فى جميع ذلك أن تكون الألفاظ توابع للمعاني ، لا أن تكون المعاني لها توابع ، أعنى : أن لا تكون متكلفة.

ثم يقول: "ويورد الأصحاب ها هنا أنواعا مثل كون الحروف منقوطة أو غير منقوطة والبعض غير منقوط بالسوية ، فلك أن تستخرج من هذا القبيل ما شئت ، وتلقب كلا من ذلك بما أحببت.

والعبارة الأخيرة وهى قوله : فلك أن تستخرج من هذا القبيل ما شئت وتلقب كلا من ذلك بما أحببت).

---

(١) المفتاح ص ٢٣٤.

ولعل هذا دليل واضح على كثرة هذه الوجوه وعدم انحصارها على طريقة القدماء، ودليل ثان على أنها ليست بعلم، فلم يحصر القدماء هذه الوجوه تحت علم، بل إنهم كانوا يخلطون بينها وبين مسائل المعاني والبيان.

والحاصل أن العلامة السكاكي حصر البلاغة عنده فى المعاني والبيان ، وهو يختم كلامه بذلك ويمهد للكلام عن (علم الاستدلال) وعبارته التي يختم بها هذا الباب هي:

"وإذ قد تحققت أن علم المعاني والبيان هو معرفة خواص تراكيب الكلام ومعرفة صياغات المعاني ليتوصل بها إلى توفية مقامات الكلام حقها بحسب ما يفى قوة ذكائك.

وعندك علم أن مقام الاستدلال بالنسبة إلى سائر مقامات الكلام جزء واحد من جملتها، وشعبة فردة من دوحتها، علمت أن تتبع تراكيب الكلام الاستدلالي ومعرفة خواصها مما يلزم صاحب علم المعاني والبيان، وحين انتصبنا لإفادته لزمنا أن لا نضن بشيء هو من جملته، وأن نستمد الله التوفيق فى تكملته"(١). انتهى كلام السكاكي

ونحن فى الصفحات القادمة سنميط اللثام عن ما وقع فيه الشراح وأصحاب الحواشي من تشويه لعبارات السكاكي وعدم فهم لكلامه وتحميل عباراته دلالات لا تتحملها ، وتفسير كلامه بما لم يرده صاحب المفتاح.

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ص ٢٣٦ ط البابي الحلبي.

الفصل الثالث
علم البديع بعد السكاكي

تقديم :

تحدثنا فى الفصل السابق عن (البديع عند السكاكي وموقفه منه) وأثبتنا بالدليل تبرئة السكاكي مما اتهم به هناك، ونحن فى الصفحات التالية نتحدث عن (علم البديع بعد السكاكي) وأول من أطلق عليه (علم) وتفسير شراح المفتاح لعبارات السكاكي ، وموقف الخطيب القزويني ومن أتى بعده من هذا العلم.

اتهام المراغي للسكاكي وتفنيد كلامه والرد عليه :

شن الشيخ أحمد مصطفى المراغي هجوما ضاريا غير مبرر على السكاكي متهما إياه بالجناية على علم البلاغة لتقسيمها إلى معان وبيان وبديع، ولعل من الضروري أن نشير إلى طرف من كلامه ، يقول:

"لا نعلم أحدا سبق السكاكي إلى قسمة علوم الفصاحة الأقسام الثلاثة المعروفة، ولا نرى لهذا التقسيم وجها صحيحا، ولا مستندا من رواية ولا دراية، فليس هناك جهة للتمايز تفصل كل علم عن قسيميه، ولا فى أغراض كل علم ولا فى موضوعه ما يجعله وحدة مستقلة عن العلمين الآخرين فى بحوثه ومسائله حتى يمكن الناظر أن يقتنع بوجاهة هذا التقسيم ويبرهن على صحته، بل على العكس نرى بينها اتصالا وثيقا فى الأغراض والمقاصد ، واتحادا فى جهة البحث، فلا يمكن فصل بعضها من بعض، وإن أمكن فعلى نحو غير ما ذكره السكاكي ومن اقتفوا أثره وساروا على سفنه دون أن يدلوا بحجة ناصعة.

ثم يقول بعد سطور : قال صاحب تلخيص المفتاح الخطيب القزويني فى تعريف علم المعاني: .... وقال فى تعريف علم البيان .....وقال فى تعريف علم البديع: هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال، ورعاية وضوح الدلالة ، وهى ضربان :معنوي ولفظي.

ثم يعلق على ذلك بقوله: وها نحن أولاء نبدأ بتفنيد هذا التقسيم وبيان خطئه، فنقول:

أما أن الراوية لا تساعده فلوجوه:

أولا: أن المتقدمين الذين كتبوا قبله كأبي هلال وابن سنان وعبد القاهر لم ينحوا هذا النحو الذي نحاه.

ثانيا: أن الزمخشري – وهو ما هو فى علو كعبه فى البلاغة –كثيرا ما يسمى هذه العلوم بالبيان ، وأحيانا يسميها بالبديع.

ثالثا: أن عبد الله بن المعتز ، وقدامة بن جعفر ، وصاحب الصناعتين، وابن رشيق والعمدة أدخلوا فى البديع مباحث البيان، فجعلوا من البديع الاستعارة والمجاز والكناية والتعريض، وكذا عبد القاهر.

رابعا: أن فى قول الخطيب القزويني فى التلخيص: " وكثير من الناس يسمى الجميع علم البيان، وفى قوله : ومنهم من يسمى الأخيرين علم البيان،كما وقع للزمخشرى فى الكشاف ، وقوله : والثلاثة علم البديع– كما يستعمله صاحب الكشاف كثيرا فى تفسيره = دليلا على أن التقسيم إلى معان وبيان وبديع لم يقل به أحد قبل السكاكي إذ لم يصرح بعزوه لأحد.

= وأما أن الدراية لا تؤيد فلوجوه – أيضا–:

١ –أن الثمرة المستفادة من علم المعاني، وهى معرفة أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال تستفاد أيضا من علم البيان والبديع، لأنا لا نعبر باستعارة ولا كناية ولا جناس ولا تورية إلا إذا اقتضاها المقام.

٢– ومما يدل على أن مباحث هذه العلوم ليست متمايزة: أن بعض المؤلفين أدخل المجاز العقلي فى علم البيان ، بينما غيرهم أدخله فى علم المعاني ، كذلك نجد جماعة أدخلوا التذييل والاحتراس والاعتراض والحشو فى البديع، وأدمجه غيرهم فى المعاني وجعلوه أقساما للإطناب، فلو كان هناك حدود واضحة تميز قسما من قسم لما جاء مثل هذا الاختلاف والارتباك فى تفريع هذه المسائل ووضعها فى المواضع المناسبة لها.

٣– إن الذي لفت نظر السكاكي إلى تسمية العلم الأول بـ (علم المعاني) أن عبد القاهر أخذ يبدىء ويعيد، ويقول: ليست أسرار النظم إلا معان فى النحو، فاختزل هذا الاسم ، وسماه (علم المعاني).

ثم يختم كلامه بقوله: وأعجب من هذا أن كبار الباحثين من العلماء الذين جاؤا بعد السكاكي لم يتنبهوا لهذا الدقائق، ولم يعيروها جانبا من العناية، وقد كانت صفحة وجهها بارزة للناظرين ووميض برق يلمع فى الأفق للباحثين... ولكن شاء الله أن تظهر الحقيقة بعد احتجابها... انتهى كلامه"(١).

مناقشة الشيخ المراغي :

وسأبد من حيث أنهى الشيخ المراغى كلامه، فلعل العجب كل العجب أن يخرج هذا الكلام من عالم له قدره كالشيخ المراغي، ولست أدرى أي فوائد هذه التي يتحدث عنها وأي منطق هذا الذي يتكلم به، فلقد قرأت كلامه مرات ومرات، وعاودت قراءته فلم أجد سوى حملة منظمة على العلامة السكاكي واتهامه بما ليس فيه، لا لشيء إلا لأن الشيخ المراغي إنما هو امتداد لمدرسة الإمام محمد عبده –وهو من هو فى العلم والمعرفة– حيث إن الإمام الشيخ قد حاول إحياء مدرسة الإمام عبد القاهر الجرجاني وإعادة دراسة كتبه، فلم يكن أمامه سوى اتهام السكاكي ومن تبع السكاكي وتفنيد جهد هذه المدرسة العظيم. وقد انضم للإمام محمد عبده : الشيخ المراغي، والشيخ عبد المتعال الصعيدي، وغيرهما– على ما هو معلوم.

ولسنا ضد إحياء مدرسة الإمام عبد القاهر ومعاودة قراءة كتابيه كيف والشيخ عبد القاهر واحد من أعظم البلاغيين والنقاد الذين أثروا البلاغة بكتابين هما من أفضل ما ألف فيها ،لكن أن يكون ذلك بهدم مدرسة أخرى واتهام صاحبها بما ليس فيه فهذا هو الجور الذي لا نرضاه.
لست من أنصار من يقسمون البلاغة إلى مدارس، لكن هذا حالها رضينا أم أبينا، وهما من وجهة نظري لا غناء لأحدهما عن الأخرى.

(١) ينظر تفصيل ذلك فى : تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها أحمد مصطفى المراغي ص١١١ وما بعدها ط مصطفى البابي الحلبي.

ونعود إلى ما كنا فيه فنقول:

أول ما نجده فى كلام الشيخ المراغي السابق هو أنه بنى كلامه على باطل ،حيث اتهم السكاكي، ثم استشهد بكلام القزويني تلميذه، ولو صح ما قال لاستشهد من كلام السكاكي لكنه لم يجد نصا صريحا يتهم به السكاكي حينما قسم البديع إلى لفظي ومعنوي.

وأما الأمر الثاني : فاستشهاده بالمؤلفات التي سبقت السكاكي ومدرسته ،وأن أحدا منهم لم يقدم على صنيع السكاكي بهذا التقسيم المزعوم.

وهذا الاستشهاد عجيب وغريب أن يصدر من عالم مثل الشيخ المراغي.

فمن قال: إن السكاكي ومدرسته قد سبقا بهذا التقسيم، ولو صح ذلك فأي فضيلة لهذه المدرسة؟!

وماذا كان يريد الشيخ المراغي من السكاكي؟ هل كان يريده منه أن ينحو نحو ابن سنان أو صاحب الصناعتين، أو حتى الشيخ عبد القاهر؟!

إذن فما الفرق بين السكاكي وبين غيره حينما يؤلف كما ألف غيره، ويكتب كما كتبوا؟!

لقد سبق أن قلنا: إن ابن سنان الخفاجي قد ألف كتابه ليس بغرض الحديث عن الألوان البلاغية وتعداد أنواعها ،وإنما ظل من أول الكتاب إلى آخره يبحث عن "سر الفصاحة" ولذا نجده يضع شروطا للفصاحة وقد نوعها إلى شروط تختص بالكلمة وأخرى بالتأليف؛ وقد انشغل ابن سنان بقضية اللفظ المعنى وقضية الإعجاز القرآني.

فلم يكن الخفاجي مؤلفا فى البلاغة حتى يزعم الشيخ المراغي أن العلامة السكاكي قد أخطأ حينما ألف لا على طريقة من سبقوه وأنه لم يذهب أحد إلى ما ذهب إليه من توزيع المحسنات البديعية إلى لفظه ومعنوية.

ولعل من العجب – أيضا- أن يستشهد الشيخ المراغي بخلط صاحب الصناعتين وابن رشيق وقدامة وغيرهم بين الألوان البلاغية ،وعدم الفصل بينهما وتسمية الجميع- أحيانا- بالبيان، وأخرى بالبديع، حيث إن البيان عند هؤلاء أشمل وأعم من علم البيان الذي استقر عليه القوم أخيرا ، وكذا

البديع، فكيف يمكن الاستشهاد بهؤلاء وغيرهم وموازنة عملهم بعمل صاحب المفتاح.

كلام الشيخ المراغي يحتاج إلى مراجعة، ولا يجب أن يتشدق بما كتبه ويزعم تفرده به، ويتعجب من إهمال غيره لما وصل هو إليه؛ لأنه كلام يدهى لا يستحق أن نفرد له صفحات أو حتى سطورا.

كان على الشيخ المراغي أن يكون أمينا فيما يكتب وينقل ، وأن ينحى هواه جانبا لأنه العالم والشيخ الذي نعتز به وبكتاباته ومؤلفاته .

كلام السكاكي وقراءة الشراح وأصحاب الحواشي له :

يقول السكاكي:

" وإذ قد تقرر أن البلاغة بمرجعيها ، وأن الفصاحة بنوعيها مما يكسو الكلام حلة التزيين، ويرقيه أعلى درجات التحسين ، فهاهنا وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام، فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها..." (١).

قرأ كل شراح المفتاح والإيضاح عبارة السكاكي السابقة واستفادوا منها حينما قسموا علم البلاغة إلى معان وبيان وبديع ،فمنهم من شرح كلام السكاكي ،ومنهم من اعتمد على نص القزويني المستفاد من المفتاح ،لكنهم اتفقوا على أن المراد بكلام السكاكي السابق إنما هو علم البديع، وراحوا يفسرون كلامه ويشرحونه ويؤولونه ويحملون عباراته الكثير والكثير على ما سيظهر بعد.

(١) بدر الدين بن مالك المتوفى سنة (٦٨٦)

يقول محقق الكتاب: يعد كتاب المصباح فى المعاني والبيان والبديع أحد هذه الكتب والمؤلفات التي دارت فى فلك مفتاح العلوم للسكاكي ، حيث ذكر الدارسون أن كتاب المصباح فى المعاني والبيان والبديع هو اختصار للجزء الثالث من كتاب المفتاح لأبى يعقوب السكاكي، ومن هؤلاء : كارل

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ص ٢٣١ – ط البابي الحلبي.

بروكلمان، والدكتور رمضان شيس اللذين ذكرا أن بدر الدين بن مالك قد اختصر المفتاح بأجزائه الثلاثة"(١).

والحق الذي لا مراء فيه أن من يستطلع كتاب (المصباح) يجد أنه خليط من كتاب المفتاح والكتب التي سبقت المفتاح ككتابي الشيخ عبد القاهر، والصناعتين ،ونقد الشعر، وسر الفصاحة وغيرها من الكتب، حيث إن العلامة ابن مالك لم يلتزم بنص المفتاح ولا منهجه ،ولا ما كتبه السكاكي ، ومن يقرأ كتاب (المصباح) يدرك ذلك لأول وهلة.

وما يعنينا هنا هو موقفه من علم البديع وقراءته لما قاله العلامة السكاكي ، وقد قسم صاحب المصباح كتابه إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول فى علم المعاني ،والثاني فى البيان ،والثالث فى البديع .

ولعل العلامة ابن مالك هو أول من قسم البلاغة هذا التقسيم الصريح ،وعبارته فى ذلك هي:

"وللبلاغة وجوه مرجعها إلى الاحتراز عن الخطأ: إما لخلل فى كيفية التركيب لتأدية المعنى المراد، وإما لخلل فى دلالة المركب، وهو ما كان ركنا للإسناد، أو قيدا فيه، والخل فى دلالته إما لمخالفة قيد منها من نحو التعريف أو التنكير لمقتضى الحال، أو لمخالفة وضوحها أو خفائها له، وتتبع تلك الوجوه رعاية طرق الفصاحة ، وهى طرق الإفهام والتبيين، وطرق تزيين الكلام بإيداع ما يورثه القبول من وجوه التحسين"(٢).

وهذا الكلام يشبه إلى حد كبير ما فى المفتاح لولا العبارة الأخيرة التي يقول فيها: "وتتبع الوجوه ... الخ " ولو انتهى كلام صاحب المصباح عند ها لقلنا إنه لم يختلف كثيرا عن ما سبقه لكنه ختم كلامه بعد هذه المقدمة بكلام هو سبب ما نحن فيه من تقسيم للبلاغة وعبارته هى:

".... وتتبع تلك الوجوه رعاية طرق الفصاحة، وهى طرف الإفهام والتبيين ، وطرق تزيين الكلام بإيداع ما يورثه القبول من وجوه التحسين، فلذلك جعلت هذا الكتاب ثلاثة أقسام:

(١) المصباح فى المعاني والبيان والبديع- تح/عبد الحميد هنداوى- ص١٠.
(٢) المصباح لابن مالك ص ٩٩ .

فالأول: يعرف منه الاحتراز فى الإفادة لتمام المراد من المعنى عن الخطأ فى كيفية التركيب، وفى دلالة المركب على قيد من قيودها ، وهو علم المعاني.

والثاني: يعرف منه الاحتراز عن الخطأ فى التركيب مما دلالته غير وافية بتمام المراد من وضوح الدلالة أو خفائها، وهو علم البيان.

والثالث: تعرف منه توابع البلاغة من طرق الفصاحة، وهو علم البديع(١).
لعل هذه السطور القليلة والتي لخصها ابن مالك هي أول تقسيم فعلى للبلاغة ، فقد أوّل ابن مالك كلام السكاكي وفهمه هكذا.
وعبارة السكاكي ليس فيها التقسيم السابق، وإنما السكاكي كان واضحا وكلامه صريح فى تقسيم البلاغة إلى معان وبيان، لكن صاحب المصباح حينما قرأ قول السكاكي: "فها هنا وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام" فهم منه أن المقصود به (علم البديع) ،وعليه قسم البلاغة إلى معان وبيان وبديع.
ولا أدرى كيف غفل كل من قرأ كتاب المصباح عن هذه العبارة الصريحة والتي تعد أول تقسيم للبلاغة إلى علومها الثلاثة ،ونسبوا هذا التقسيم للعلامة السكاكي لمجرد قوله: "فها هنا وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام"؟!
ولم يقف كلام صاحب المصباح عند هذا الحد، لكنه عنون القسم الثالث فى (علم البديع) ، وعرفه بقوله:
" هو معرفة توابع الفصاحة ..."
ثم يقول :" وقد ظهر من هذا أن لابد فى تكميل الفصاحة من إبانة المعنى باللفظ المختار، وهى من متممات البلاغة.
ومما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين ، ويتفرع منها وجوه كثيرة يصار إليها فى باب تحسين الكلام ، فلنتعرض لذكر الأهم منها فى ثلاثة فصول؛ لأنها إما راجعة إلى الفصاحة اللفظية، وإما راجعة إلى المعنوية،

(١) المصباح ص ٩٩ .

والراجعة إلى المعنوية إما مختصة بالإفهام والتبيين، وإما مختصة بالتزيين والتحسين"(١).

هذا هو كلام صاحب المصباح الذي يزعم فيه أنه اختصار لكلام السكاكي وتأويل له.

ولعل الذي يقرأ هذا الكلام وكلام السكاكي يجد أنهما متشابهين إلى حد كبير إلا أن النتيجة عندهما لم تكن واحدة فقد صرح السكاكي من أول وهلة أن البلاغة عنده : معان وبيان وأنه لا أثر لما يسمى بعده "بعلم البديع".

لكن صاحب "المصباح" أوّل كلام السكاكي وفهمه على غير جهته ،حيث نقل كلامه ثم عقب عليه بقوله:

"فلذلك جعلت هذا الكتاب ثلاثة أقسام ..."

فهو صريح فى استحداث قسم ثالث هو "علم البديع"، ولم يكن ذلك ما نص عليه صاحب المفتاح حيث صرح فى أكثر من موضع على تقسيم البلاغة : إلى معان وبيان ، على ما مر من ذي قبل.

إذن فإني أقول – مطمئنا-: إن أول من صرح بتقسيم البلاغة إلى معان وبيان وبديع هو ابن مالك صاحب المصباح.

(٢) العلامة الشيرازي

العلامة قطب الدين الشيرازي أول من شرحوا كتاب: "مفتاح العلوم" للسكاكي وسماه (مفتاح المفتاح) وحققه أستاذنا الدكتور/ نزيه عبد الحميد السيد فراج فى رسالة علمية (العالمية الدكتوراه) أشرف عليها فضيلة الأستاذ الدكتور/ كامل إمام الخولى.

ومن يستطلع كلام الشيرازي فى شرحه المفتاح يجده متأثرا إلى حد كبير بصاحب "المصباح" ولعل تأثيره هذا جعله لا ينصت إلى كلام السكاكي ولا يعي لما يقول، بل يخلط فى شرحه بين كلام السكاكي وكلام ابن مالك فى المصباح وسيتضح ذلك حينما نقرأ شرحه للمفتاح.

(١) السابق ص ٩٩

يقول الشيرازي: "قول السكاكي: (وإذ قد تقرر أن البلاغة بمرجعيها) وهما : علم المعانى، وعلم البيان، (وأن الفصاحة بنوعيها) وهما المعنوية واللفظية (مما يكسو الكلام حلة التزيين، ويرقيه أعلى درجات التحسين) وإن كان تزيين كل من الأربعة- أي: العلمين والفصاحتين، وتحسينه للكلام غير تزيين الآخر وتحسينه له.

ثم يشرح كلام السكاكي بقوله:

لما فرغ من بيان البلاغة أخذ يتكلم فى بيان الفصاحتين- متمماتها وهى صناعة الفصاحة، أو علم البديع، أو ما شئت فسمه- وقد علمت فى صدر الكتاب أنه لابد فى تكميل الفصاحة باللفظ المختار ، وأنه يتفرع منها وجوه مسماه بتوابع الفصاحة وطرقها كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام وتبين المرام، وأنها راجعة إما إلى الفصاحة اللفظية أو المعنوية، والراجعة إلى المعنوية إما مختصة بالإفهام والتبيين، وإما مختصة بالتحسين والتزيين(١).

هذا كلام العلامة الشيرازي شارح المفتاح للسكاكي وهو كلام فى غاية الخطورة ؛ لأنه كان يجب أن يكون أمينا فى شرحه كلام السكاكي وتفسير عباراته، لكنه شرح كلام السكاكي بنص كلام ابن مالك فى "المصباح " كما رأينا من ذي قبل، ونقل كلامه فى ذلك كاملا، وحمل عبارات السكاكي دلالات لا تتحملها ،حيث ادعى أن كلام السكاكي هو من متممات الفصاحة وأنه هو "علم البديع"، ولم يقف الأمر عند هذا، بل إنه زاد وقسم الفصاحة المعنوية إلى: مختصة بالإفهام والتبيين، ومختصة بالتحسين والتزيين ، على طريقة ابن مالك فى المصباح.

ونحن لسنا ضد تقسيم صاحب المصباح ، لكننا ضد شرح كلام السكاكي بما لم يقله، ولم يقصده، وضد تأويل كلام صاحب المفتاح بما لا يعنيه.

ثم يقول الشيرازي :

" أراد أن يشير إلى تلك الوجوه فقال- يعنى السكاكي-: (فها هنا): أي فى مقام الكلام على متممات البلاغة (وجوه مخصوصة) وإنما قال: "مخصوصة"

(١) شرح مفتاح العلوم المسمى (مفتاح المفتاح) للشيرازي ت /أ .د/نزيه فراج دكتوراه سنه ١٩٩٧م.

لما قال ابن الأثير فى المثل السائر: اعلم أنه للفصاحة والبلاغة أوصافا خاصة وأوصافا عامة، فالخاصة كالتجنيس فيما يرجع إلى اللفظ ، وكالمطابقة فيما يرجع إلى المعنى.

وأما العامة: فكالسجع فيما يرجع إلى اللفظ، وكالاستعارة فيما يرجع إلى المعنى(١).

فكأنه- والكلام للشيرازي- احترز- أي السكاكي بالمخصوصة- أي: الخاصة- عن العامة.

والحاصل أن العامة لا يخلو عنها كلام البليغ الفصيح، بخلاف الخاصة فإنه قد يخلو عنها.

وقوله – أي السكاكي- : (كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام ، فلا علينا): أي: فلا بأس علينا، أو فلا يضرنا (أن نشير إلى الأعرف منها)) أي: من تلك الوجوه.

ثم يقول:

ولا علينا – أيضا- أن نشير إلى غير الأعرف منها، بل أكثر ما قيل ووصل إلينا فى هذا القسم، أعنى: البديع، ليكون الكتاب جامعا لجميع أقسام البديع كما كان جامعا لأقسام غيره ، وإنما لم يلتفت المصنف – رحمه الله- إلى هذا النوع مزيد التفات؛ لأن التفاته إلى تحقيق الحقائق أكثر منه إلى تدقيق ما فى أمثال الحدائق.

لكن لما كان تحسين الكلام عظيم الجدوى، لا جرم أشبعنا القول فيه ثم يقول:

وإذا عرفت ذلك فاعلم أن المصنف- رحمه الله- لم يفرق بين الوجوه العائدة إلى الفصاحة المعنوية- أعنى لم يميز بين المختصة بتبيين المعنى كحسن البيان، أو بتحسينه كالمطابقة؛ لأنها مما تحسن المعنى، كما أن التجنيس مما يحسن اللفظ، لأنها تفيد المعنى تناسبا كما أنه يفيد الألفاظ تناسبا.

فإذن المحسن إما أن يرجع إلى اللفظ مما يزيده حسنا.... وإما أن يرجع إلى المعنى مما يزيده حسنا ، لكنه ينقسم قسمين:

---

(١) المثل السائر ٢/ ٧٠ .

لأن زيادة حسن المعنى إما أن تكون لكون المحسن مبينا للمعنى، ولم يذكر المصنف رحمه الله منها شيئا، أو لا تكون كذلك، بل تكون لكون المحسن يفيد المعنى تناسبا كالمطابقة، وقد ذكر رحمه الله منها عشرين وجها.

وأشار إلى القسمين اللذين انقسم عليهما الوجوه المخصوصة بقوله.

(وهى قسمان: قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ)

فإن قلت: لم انقسم محسن المعاني إلى ما يفيدها تبينا، وإلى ما يفيدها تزينا، ولم ينقسم محسن الألفاظ كذلك، بل اختص بما يفيد الألفاظ تزينا، دون ما يفيدها تبينا؟

قلت: لأن تبيين الألفاظ إنما يكون باعتبار تبيين معانيها ، وهو المذكور فى المعنوي(١).

هذا هو نص كلام العلامة الشيرازي عند شرحه لما فى مفتاح السكاكي، وهو شرح تنقصه الأمانة، حيث كان الشيرازي البذرة الأولى فى تحويل مسار كلام السكاكي على هذا النحو، حيث فهم كل من أتى بعده أن السكاكي يتحدث عن (علم البديع) بل وأنه قسم البديع إلى محسن لفظي، ومحسن معنوي، وهو ما لم يذكره السكاكي فى المفتاح.

ولعل ما جعل الشيرازي ينحو هذا النحو أنه فسر كلام السكاكي وشرحه بكلام ابن مالك فى المصباح، ومن يعاود قراءة كلام صاحب (المصباح) يدرك ذلك لأول وهلة.

(٣) الخطيب القزويني

العلامة القزويني على ما هو معلوم ألف كتاب (تلخيص المفتاح) ثم شرحه بـ (الإيضاح)، وقد قامت حول هذين الكتابين شروح وحواش لا تنحصر، فلعل كتابي القزويني بالإضافة إلى مفتاح السكاكي من أكثر الكتب التي دار حولها الشروح والحواشي والتقارير.

والعلامة القزويني اختار طريقا وسطا بين الشيرازي والسكاكي، حيث اكتفى بتأويل كلام السكاكي إلى كون المراد بالوجوه المخصوصة: (علم البديع).

(١) ينظر : شرح مفتاح العلوم، مفتاح المفتاح، للشيرازى - دكتوراه ص ١١٣٩ .

يقول فى مقدمة التلخيص: "لما كان القسم الثالث من مفتاح العلوم الذي صنفه العلامة أبو يعقوب السكاكي أعظم ما صنف فيه من الكتب المشهورة نفعا لكونه أحسنها ترتيبا وأتمها تحريرا ، وأكثر للأصول جمعا... ولكن كان غير مصون عن الحشو والتطويل والتعقيد ، قابلا للاختصار مفتقرا إلى الإيضاح والتجريد .... ألفت مختصر يتضمن ما فيه من القواعد ... ويشتمل على ما يحتاج إليه من الأمثلة والشواهد ، ولم آل جهدا فى تحقيقه وتهذيبه، ورتبته ترتيبا أقرب تناولا من ترتيبه، ولم أبالغ فى اختصار لفظه ؛تقريبا لتعاطيه، وطلبا لتسهيل فهمه على طالبيه ، وأضفت إلى ذلك فوائد عثرت فى بعض كتب القوم عليها، وزوائد لم أظفر فى كلام أحد بالتصريح بها ولا الإشارة إليها، وسميته: (تلخيص المفتاح) (١).

والحق الذي لا مراء فيه أن القزويني لم يكن ملخصا لما فى المفتاح فحسب بل إنه قد استعان فى كتابه بـ (سر الفصاحة) و(الأسرار والدلائل) للشيخ عبد القاهر و(نهاية الإيجاز) للرازي وغيرها من الكتب.

وليس هذا ما يهمنا هنا وإنما الذي نود أن ننبه عليه أن القزويني لم يكن ملخصا لما فى المفتاح بل إنه كان يشرح كلام السكاكي أحيانا ، ويفصل القول فيه.

ولا عبرة لما يقال من أن المراد بالتلخيص هنا: الشرح ،على ما فى القاموس ؛ لأن القزويني لم يرد هذا المعنى بدليل أنه ألف كتابا آخر سماه (الإيضاح).

بل إننا لا نبالغ إذا قلنا : إن القزويني قد قدم وأخر وأضاف وحذف من المفتاح للسكاكي.

ولم يكن هذا كله مما يؤخذ عليه؛ لأنه ألف كتابه بطريقته، لكنه ما كان ينبغي أن يسمى كتابيه بـ (تلخيص المفتاح) ولا (الإيضاح على تلخيص المفتاح).

بل إنه ما كان ينبغي أن يزعم شرحه لما فى مفتاح العلوم، وهو يؤول كلام السكاكي بغير مراده،حيث قسم القزويني كتابه إلى: (معان وبيان وبديع) وقسم البديع إلى: (لفظي ومعنوي) ،وزعم أن هذا من ابتكارات السكاكي وأنه ملخص له تارة ،وشارح له أخرى.

(١) تلخيص المفتاح للقزويني ص ٥- ط دار الكتب العلمية.

والحق أن القزويني بهذا قد مهد الطريق لكل من أتى بعده بتقسيم البلاغة إلى معان وبيان وبديع وبتقسيم البديع إلى لفظي ومعنوي، ومن ثم حاول البعض تفسير تذيل البديع لعلوم البلاغة، وفسروا ذلك : أن الحسن الناتج عنه عرضي بعكس أخويه (المعاني والبيان).

ولعل السبب فى هذا الفهم هو تعريف القزويني للبديع ، حيث يعد صاحب (التلخيص) أول من عرف علم البديع بقوله "علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة"(١).
ثم يقول فى آخر الباب: "وأصل الحسن فى ذلك كله:أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني دون العكس"(٢).

ويقول فى الإيضاح: "وأصل الحسن فى جميع ذلك- أعنى القسم اللفظي- كما قال الشيخ عبد القاهر: هو أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني، فإن المعاني إذا أرسلت على سجيتها ، وتركت وما تريد، طلبت الألفاظ، ولم تكتس إلا ما يليق بها، فإن كان خلاف ذلك كان كما قال أبو الطيب:

إذا لم تشاهد غير حسن شياتها وأعضائها فالحسن عنك مغيب

وقد يقع فى كلام بعض المتأخرين ما حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ماله اسم فى البديع على أن ينس أنه يتكلم ليفهم ويقول ليبين ، ويخيل إليه أنه إذا جمع عدة من أقسام البديع فى بيت فلا يضير أن يقع ما عناه فى عمياء، وأن يوقع السامع طلبه فى خبط عشواء"(٣).
وإذا عقدنا موازنة بين ما قاله ابن مالك فى المصباح وما قاله القزويني فى الإيضاح ندرك لأول وهلة مدى تأثر ابن مالك بالسكاكي، لولا تسميته لهذه الوجوه المخصوصة بالمحسنات وتقسيمها التقسيم المعروف ، ولولا تقسيمه كتابه إلى معان وبيان وبديع لكان كلامه من كلام صاحب المفتاح.

(١) تلخيص المفتاح للقزويني ص ٨٦.
(٢) تلخيص المفتاح ص ١٩ .
(٣) الإيضاح ٦/ ١١٦ .

أما القزويني فزاد على ما سطره المصباح بتعريف جديد لعلم البديع جعله يتوقف على أخوية (المعاني والبيان) ولا يأت إلا تاليا لهما حيث عرفه بأنه (علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة".
وفسر شارحوه – على ما سيأتي-(المطابقة) بعلم المعاني و(وضوح الدلالة) بعلم البيان، وأنه على ذلك يمكن تفسير علم البديع. بأنه محسن يأتي بعد علم المعاني والبيان، وأن تحسينه عرضيا ليس كتحسين أخويه.
وبذلك يكون القزويني بهذا التعريف والتقسيم قد جنى على البديع حيث فصله عن أخويه، وجعل حسنه عرضيا ،هذا بالإضافة إلى قول القزويني عند حديثه عن الفصاحة (وتتبعها وجوه أخر تورث الكلام حسنا) حيث فهم كل من أتى بعده أن هذه الوجوه هي (البديع) وأنها عرضيه بدليل قول القزويني (وتتبعها...).

(٤) (الخلخالي)

العلامة الخلخالي هو شمس الدين محمد بن مظفر الخطيبي الخلخالي صاحب كتاب (مفتاح تلخيص المفتاح)، وهو من أوائل شغفوا بكتاب تلخيص المفتاح ، يقول فى مقدمة كتابه: " ...ومما صنف فيه من الكتب الفاخرة والزبد الوافرة كتاب (تلخيص المفتاح) ... ولقد دعاني تشغف الطلاب بتعلمه وإكبابهم على تحصيله، ومواظبتهم على تفهم جمله وتفصيله.
ولكن صعب عليهم حل ملغزه، وفك مغلقه، وبسط موجزه ولم يكن له غير ما هو كالشرح له من كتابه: (الإيضاح) فى هذا الفن إلى أن شرح له شرحا وافيا يذلل من اللفظ صعابه، ويكشف عن وجه المعاني نقابه، ويميط عن البيان لثامه، مشيرا فيه إلى أجوبة ما اعترض به مؤلفه فيه، وفى كتابه "الإيضاح على صاحب المفتاح"(١).
فالعلامة الخلخالي – كما واضح من كلامه – أول بذرة زرعها القزويني فى كتابيه، فهو شارح لكتابيه مولع بما فيهما، متأثر بكلام صاحبهما، ويبدو من

(١) مفتاح تلخيص المفتاح للخلخالي ص ٣٠ تح أ.د/هاشم محمد هاشم.

كلام الخلخالي اعتماده على ما كتبه القزويني دون الرجوع للأصل الذي هو مفتاح السكاكي .

وما دام الخلخالي قد هم بشرح تلخيص القزويني فإنه سيرضى بتقسيماته ، فنراه يقسم البلاغة إلى معان وبيان وبديع .

وما يهمنا هو موقفه من علم البديع، يقول: قال القزويني : علم البديع: وهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة.

ثم يشرح هذا التعريف ويوضحه بقوله:

أي: علم بالقواعد التي يعلم بها الوجوه ،نسب -يعنى القزويني- العرفان إلى الوجوه المذكورة ؛ لأنها أمور جزئية تلحق التراكيب الجزئية.

ثم يقول:

وعلم من هذا التعريف أن تلك الوجوه إنما تلحق التركيب بعد رعاية ما تقتضيه صناعة البلاغة- أعنى :علمي المعاني والبيان- من التطبيق والوضوح، وقول القزويني: (بعد رعاية) ظرف للتحسين.

وهذه الوجوه على ثلاثة أضرب: إما راجع إلى المعنى، أو إلى اللفظ، أو إليهما جميعا.

والمؤلف قسمها إلى الضربين الأولين فقط، ولم يتعرض للضرب الثالث تصريحا، وهو واقع ويجئ بحسب القسمة العقلية – أيضا-

ووجهه أن يقال: هذا الوجوه إما أن ترجع إلى اللفظ فقط أوْ لا ، والثاني يندرج فيه ما يرجع إلى المعنى فقط، وإليهما جميعا ، ونحن نشير إلى ما يرجع إلى المعنى فقط، وإلى ما يرجع إليهما"(١).

هذا هو موقف الخلخالي من البديع اعتمد فيه على كلام صاحب التلخيص يظهر هذا من قوله: (وعلم من هذا التعريف....) .

ولكنه خالف القزويني فى تقسيمه لهذه المحسنات، حيث زاد قسم (ما يرجع إلى اللفظ والمعنى معا).

ولم يفسر لنا الخلخالي اختياره لكل قسم بل إنه خلط بين اللفظي والمعنوي ، فتارة يشير إلى أن هذا النوع يرجع إلى اللفظ والمعنى كما فى المطابقة والمقابلة

(١) مفتاح تلخيص المفتاح للخلخالي ص ٦٣٨.

والمشاكلة وغيرها ،وتارة أخرى يشير إلى أنه يرجع إلى المعنى فقط كالتورية، والمبالغة، وذكر فى النوع الذي يرجع إلى اللفظ فقط الجناس والسجع وغير ذلك.

ولم يفسر لنا الخلخالي سبب اختياره لهذه المحسنات تحت هذه الأقسام.

والحق أن الخلخالي قد تابع القزويني، ولم يشذ عنه فى موقفه من البديع، بل إنه كان أكثر تصريحا منه، ولعل قوله: (وعلم من هذا التعريف أن تلك الوجوه إنما تلحق التركيب بعد رعاية ما تقتضيه صناعة البلاغة – أعنى : علمي المعاني والبيان- من التطبيق والوضوح) مما يؤكد ذلك.

(٥) عضد الدين الإيجي

لقد لخص الإيجي القسم الثالث من "مفتاح العلوم" الذي يختص بالبلاغة فى كتابة (الفوائد الغياثية)، وكذلك فعل الخطيب ،ولكن شتان ما بينهما، فكتاب الإيجي مختصر شديد الاختصار ، كز العبارة بعض الشيء، يميل إلى التعبير العلمي والفكرة الفلسفية كما كان أصله، بل لعله كان أكثر منه إمعانا فى هذا الباب، وكان عزوفه عن التحليل الأدبي للشواهد ، بل عزوفه عن التماس الشواهد من البداية ظاهرا كل الظهور، كأنما كان همه أن يسجل القاعدة لتثبيت فى الذهن كأنها نظرية علمية دليلها مطوي فيها، وهذا يجانف الروح البلاغية التي آثرها الخطيب، فرغم اعترافه بأنه لخص المفتاح إلا أنه أعطى لنفسه الحرية فى الإضافة والتنسيق والتوسع فى الاستشهاد والتحليل ، بل والنقد لبعض ما لم يقنع به من آراء للسكاكي(١).

وعن موقف الإيجي من علم البديع يقول محقق الكتاب "إن كلا من الخطيب والإيجي قد سار سيرا جديدا فى توضيح البديع، فقد جعله الخطيب فنا مستقلا، وعرفه تعريفا علميا زيادة على السكاكي، ودخل الإيجي فى الموضوع بصورة فنية، حيث ربط الكلام اللاحق بالسابق، فقال: "وبالحري أن نذيلهما بشيء من البديع"، ولم يعرفه ، أما السكاكي فقد قال (وإذ تقرر أن البلاغة بمرجعيها، والفصاحة بنوعيها مما يكسو الكلام حلة التزيين ، ويرقيه أعلى

(١) الفوائد الغياثية تح د/عاشق حسين ص ٣٨ .

درجات التحسين،فهاهنا وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها لقصد التحسين..." (١).
وقد ذكر محقق الكتاب الفرق بين تناول السكاكي والإيجي لعلم البديع وموقفهم منه فقال:

لقد كان السكاكي أكثر تخوفا من التورط فى وضع منزلة البديع ،حيث إنه أشار إلى أنه من الألوان التي يحسن بها الكلام تماما كما وصف المعاني والبيان، وحيث ذكر من ألوانه : الإطناب، والإيجاز والالتفات ، وأحال منها على علم المعاني، وتبعه فى ذلك الإيجي ، وإن لم يحتط فى تقدير منزلة البديع، فهبط به إلى مستوى أقل من قسميه، وكان فى ذلك متفقا مع الخطيب، ومع هذا التشابه بين الاثنين، فإنه لا ينهض إلى إثبات التأثر ، فربما كان تأخير عن توارد الخواطر ، وسوء فهم لمراد السكاكي من تأخير البديع، ومن وصفه بأنه من محسنات الكلام، حيث فهم المحسن على نحو ما فهم المتأخرون من هذا الوصف، وبدليل أن الإيجي لم يستقص من ألوانه إلا ما ذكره السكاكي، دون إضافة شيء مما ذكره الخطيب، وكان السكاكي موجزا إلى حد كبير فى ذكر الألوان والاستشهاد لها، وكان الإيجي متأسيا به فى ذلك، بل لعله كان أميل إلى الإيجاز على عكس مسلك الخطيب(٢).

هذا هو كلام محقق كتاب (الفوائد الغياثية) ورأيه فى موقف الإيجي من علم البديع، وهو كلام فى غاية الدقة والأهمية.
وحاصله: أن الإيجي سار على نهج السكاكي فى عده بعض المحسنات التي لم يخرج فيها عن ما ذكره صاحب المفتاح.

لكن الذي يجب التنبيه عليه : هو أن العلامة الإيجي وإن التزام بنفس الألوان التي عدها السكاكي إلا أنه لم يلتزم بموقفه حيث أساء فهم كلام السكاكي

(١) السابق ص ٩٥ .
(٢) الفوائد الغياثية فى علوم البلاغة تح د/عاشق حسين ص ٩٥.

حينما صرح أن هذه الألوان هي علم البديع، وهو ما لم يقل به صاحب المفتاح، وعبارة الإيجي هي: "والفصاحة معنوية ... ولفظية.. وبالحري أن نذيلهما شيئا من البديع ، وهو قسمان: معنوي ولفظي(١).

فالعلامة الإيجي فهم كلام السكاكي عن المحسنات أنها هي (علم البديع) ومع أن صاحب المفتاح لم يصرح بذلك إلا أن الإيجي قد خلط بين كلام السكاكي وكلام القزويني.

(١) الفوائد الغياثية ص ١٦٤.

(٦) السبكي في (عروس الأفراح)

ألف الشيخ بهاء الدين أحمد بن عبد الكافي السبكي كتابه "عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح" وكان موقفه من علم البديع أكثر وضوحا من ذي قبل، حيث نقل كلام صاحب التلخيص السابق ثم علق بقوله:

"قول القزويني: (بعد رعاية المطابقة) إشارة إلى رعاية ما يجب اعتباره من علم المعاني من مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فاللام فيه للعهد.

وقوله: (ووضوح الدلالة) إشارة لما يجب اعتباره من علم البيان، والمراد: وضوح الدلالة المتقدم ذكره.

ثم يقول : وقوله(بعد رعاية تطبيقه): يحتمل أن يراد بعد معرفة تطبيقه ووضوح الدلالة، ويكون المراد: هو قواعد يعرف بها وجوه التحسين ووجوه التطبيق والوضوح ، ومعرفة التطبيق والوضوح سابقان على معرفة التحسين، فيكون المعاني والبيان جزأين للبديع.

ويحتمل أن يراد: قواعد يعرف بها بعد معرفة التطبيق والوضوح، وجوه التحسين، فلا يكون المعاني والبيان جزأين للبديع، بل مقدمتين له، وقد صرحوا بأن المراد هو الأول، وفي استخراجه من منطوق عبارة المصنف عسر؛ لأنك إذا قلت : (عرفت زيدا بعد معرفتي لعمرو) فالمخبر به معرفة زيد مقيدة بسبق معرفة عمرو، لا معرفة زيد وعمرو، وقوله: (بعد) يحتمل أن يكون منصوبا بـ (يعرف) وأن يكون منصوبا (بالتحسين).

ثم يدلى برأيه فى هذا فيقول:

والحق الذي لا ينازع فيه منصف أن البديع لا يشترط فيه التطبيق ولا وضوح الدلالة، وأن كل واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال ومن الإيراد بطرق مختلفة ومن وجوه التحسين قد يوجد دون الآخرين.

وأدل برهان على ذلك أنك لا تجدهم في شيء من أمثلة البيان يتعرضون إلى بيان اشتمال شيء منها على التطبيق ولا تجدهم في شيء من أمثلة البديع يتعرضون لاشتماله على التطبيق والإيراد، بل تجد كثيرا منها خاليا عن التشبيه والاستعارة والكناية التي هي طرق علم البيان، هذا هو الإنصاف ، وإن كان

مخالفا لكلام الأكثرين ، ولا يخفى أن هذا التعريف من الرسوم غير الحقيقية لما فيه من التعدية التي هي أمر إضافي(١).

لعل العلامة السبكي هو أول من أنصف علم البديع ، ومع أنه شارح لكلام القزويني فى (التلخيص)، ومع أنه قد حاول بشتى الطرق تأويل كلامه، وجعله على غير مراد القزويني إلا أنه لما وجد القوم قد أجمعوا على فهم كلام صاحب التلخيص على اعتماد البديع على أخويه (المعاني والبيان) قال: "والحق الذي لا ينازع فيه منصف أن البديع لا يشترط فيه التطبيق ولا وضوح الدلالة...".

ومع أن كلامه له وجاهته إلا أن القزويني ومن قبله ابن مالك هما من أحدثا كل هذا الضجيج بتعريفهم (البديع) هذا التعريف ، وإن كان العلامة السبكي قد أنصف (البديع) فإننا لا نجد باقي الشراح يسيرون على دربه؛ بل إننا نجدهم يعودون إلى كلام القزويني مرة أخرى.

(٧) سعد الدين التفتازاني

العلامة سعد الدين التفتازاني يعد من أهم الذين تحدثوا عن (البديع) وذلك لأنه قد ألف فى البلاغة ثلاثة كتب: كتاب شرح به مفتاح السكاكي أو الجزء الثالث منه، ومختصر المعاني على التلخيص للقزويني ،وشرحه الكبير المسمى بـ (المطول).

فالرجل تفرد بقراءته لكلا الكتابين (مفتاح العلوم) للسكاكي وتلخيص المفتاح للقزويني.

أولا: موقفه من علم البديع فى كتابه (شرح مفتاح العلوم):

يقول التفتازاني: "ومرجعا البلاغة هما المعاني والبيان المشار إليهما بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها، ونوعا الفصاحة هما اللفظية والمعنوية.

وقوله: (فها هنا وجوه مخصوصة ... الخ) أي: ها هنا وجوه مخصوصة غير جهات الحسن الراجعة إلى نفس البلاغة والفصاحة (كثيرا ما يصار إليها) أي:

(١) عروس الأفراح ٤/ ٣٢٨ تح د/خليل إبراهيم.

فى كثير من الأحيان يرجع إليها لقصد تحسين الكلام ، وهى من توابع البلاغة ولا تتعلق بما هو الحسن الذاتي للكلام ، فلذا أخر عن البيان –أيضا– مع جعلها مندرجة فى تعريف المعاني بقوله: (وما يتصل بها من الاستحسان وغيره) على ما مر ، ولذا قل التفات المصنف إليه ،حيث قال: (لا علينا)، أي: لا بأس علينا أن نشير إلى الأعرف منها، بمعنى: عدم التعرض للكثير غير الشائع وللشائع على سبيل تمام القصد والاستقصاء ، ونحن نقفوا أثره فى ذلك لما عرفت من أن ليس قصدنا فى هذا الكتاب إلا التنبيه على دقائق الكتاب والتوضيح لما قصد فى كل باب(١).

هذا هو نص كلام التفتازاني فى شرح المفتاح للسكاكي، وقد كان أمينا عند شرحه كلام صاحب المفتاح لولا أنه قال: (وهى من توابع البلاغة، ولا تتعلق بما هو الحسن الذاتي للكلام) .

فلست أدرى كيف يحق للتفتازاني أن يحكم هذا الحكم على هذه الوجوه المخصوصة التي ذكرها السكاكي ، ومن أين أتى بهذا التفسير من نص كلام السكاكي، فعبارة السكاكي فى ذلك هي:

"وإذا قد تقرر أن البلاغة بمرجعيها، وأن الفصاحة بنوعيها مما يكسو الكلام حلة التزيين، ويرقيه أعلى درجات التحسين، فها هنا وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام، فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها"(٢).

فكيف يحق للتفتازاني أن يحكم على هذه الوجوه بالتابع، وأن يطلق على الحسن عنها بالحسن العرضي ؟!

وقد حاول التفتازاني أن يبرهن على صحة استنتاجه من كلام السكاكي فعلل ذلك بقوله:

(فلذا أخر عن البيان، مع جعلها مندرجة فى تعريف المعاني) وقول السكاكي: (فلذا قل التفات المصنف إليه فقال: فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها).

(١) شرح القسم الثالث من مفتاح العلوم للتفتازاني – مخطوط- لوحه رقم ٣٠٨ تحت رقم
(٢) مفتاح العلوم للسكاكي ص ٢٣١ ط الحلبي.

وهذا التعليل من التفتازاني فى غير محله، فكما مر من ذي قبل أن السكاكي لما وجد أن هناك ألوانا بلاغية لا تندرج تحت علم المعاني أو علم البيان، ولا تدخل تحت أي من التعريفين ذكرها فى مكانها من كتابه.

ثانيا: موقف التفتازانى من علم البديع فى شرحيه على التلخيص (المختصر- والمطول)

لم يختلف موقف التفتازاني كثيرا فى شرحيه على التلخيص (المطول) و(المختصر) عنه فى شرحه على المفتاح، وعبارته فى المطول هي: "فوجوه تحسين الكلام إشارة إلى الوجوه المذكورة فى صدر الكلام فى قوله: (ويتبعها وجوه أخر تورث الكلام حسنا) ،على أن هذه الوجوه إنما تعد محسنه للكلام بعد رعاية الأمرين ، وإلا لكان كتعليق الدرر على أعناق الخنازير.... ولا يجوز أن يكون المراد بوجوه التحسين:مفهومها الأعم الشامل للمطابقة لمقتضى الحال والخلو عن التعقيد ،وغير ذلك مما يورث الكلام حسنا، سواء كان داخلا فى البلاغة أو غير داخل ، ويكون قوله: (بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة) احترازا عما يكون داخلا فى البلاغة مما يتبين فى علم المعاني والبيان واللغة والصرف والنحو؛ لأنه يدخل فيها حينئذ بعض ما ليس من المحسنات التابعة لبلاغة الكلام كالخلو عن التنافر مثلا- مع أنه ليس من علم البديع"(١).

هذا هو رأى التفتازاني عند شرحه لتعريف علم البديع عند الخطيب القزويني فى التخليص ، وهو كما ترى يجعل البديع تاليا للمعاني والبيان ومعتمدا عليهما، ولا يمكن وجوده بدونهما ، فكما قال: (إن هذه الوجوه إنما تعد محسنة للكلام بعد رعاية الأمرين ، وإلا لكان كتعليق الدرر على أعناق الخنازير) وهو تعبير فى غاية الجور والظلم لعلم البديع، ولعل السبب فى ذلك هو التعريف الذي اخترعه القزويني لعلم البديع.

وقد كان موقف التفتازاني أكثر وضوحا من علم البديع فى مقدمة (المطول)، يقول عند تعليقه على كلام القزويني (وتتبعها وجوه أخر تورث الكلام حسنا...) : "هذا تمهيد لبيان الاحتياج إلى علم البديع ، وفيه إشارة إلى أن

(١) المطول ص ٤١٦ ط المكتبة الأزهرية للتراث.

تحسين هذه الوجوه للكلام عرضي خارج عن حد البلاغة ، ولفظ (وتتبعها) إشعار بأن هذه إنما تعد محسنة بعد رعاية المطابقة والفصاحة، وجعلها تابعة لبلاغة الكلام دون المتكلم ؛ لأنها ليست مما يجعل المتكلم موصوفا بصفة كالفصاحة والبلاغة، بل هي من أوصاف الكلام خاصة(١).

هذا هو تفسير التفتازاني لنص عبارة القزويني الملبسة التي جعلت كل من يأتي بعده –ومنهم التفتازاني– يفسرها بالتابع وأن تحسينها عرضي غير داخل فى البلاغة.

ولو أنصف القزويني – ومن تبعه– لنقل العبارة كما قالها صاحبها السكاكي فى مفتاح العلوم حيث قال: (وها هنا وجوه أخر تورث الكلام حسنا)

وفرق شاسع للمتأمل بين (وها هنا) وبين (وتتبعها) التي اخترعها القزويني وجعلت شراحه يفسرونها على غير مراد صاحب المفتاح.

(٨) السيد الشريف الجرجاني

العلامة الشريف كالعلامة التفتازاني فى كونه شارح لمفتاح العلوم بكتاب أطلق عليه (المصباح) حققه فى رسالة علمية أستاذنا الدكتور فريد محمد بدوى النكلاوي ، وأيضا له حاشية السيد على المطول الذي يشرح فيها كلام (تلخيص المفتاح) للقزويني.

فالعلام السيد قرأ كتابي (مفتاح العلوم) للسكاكي، و (تلخيص المفتاح) للخطيب للقزويني.

أولا: موقفه من علم البديع فى كتاب (المصباح شرح المفتاح):

يقول العلامة الشريف– معلقا على قول السكاكي– :(فهاهنا وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام ، فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها) يقول:

قول السكاكي : (لقصد تحسين الكلام) يريد أن تلك الوجوه تفيد الكلام حسنا تابعا للبلاغة والفصاحة ، خارجا عما هو حسن ذاتي للكلام البليغ الفصيح، يدل على ذلك قوله: ويرقيه أعلى درجات التحسين، وفى قوله: (فلا

(١) المطول ص ٣١.

علينا): أي: لا بأس علينا، دلالة صريحة على أن الوجوه المخصوصة لا مدخل لها فى الاحتراز عن الخطأ فى تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره ، إذ لو كانت كذلك لوجب عليه أن يفصلها كسائر أجزاء علم البلاغة، فلا يجوز أن يحمل الاستحسان فى حد علم المعاني على المحسنات البديعية كما حققناه هناك، فذكره للمطابقة والتجنيس فى أثناء نكت الآية من حيث النظر فى علم المعاني على سبيل الاستطراد والتبعية"(١).

لقد قرر السيد الشريف بعد قراءته كلام (المفتاح) أن الوجوه المشار إليها فى كلام السكاكي هي وجوه تابعة للبلاغة والفصاحة ،وأن حسن هذه الوجوه عرضي خارج عما هو حسن ذاتي للكلام البليغ.

وقد حاول السيد الشريف أن يدلل على ذلك من كلام السكاكي نفسه، فاعتبر أن قول السكاكي فى جانب البلاغة والفصاحة (ويرقيه أعلى درجات التحسين) وقوله فى جانب الوجوه: (لقصيد تحسين الكلام) شاهد على ذلك.

ولم يتنبه العلامة الشريف لقول السكاكي- أيضا- فى جانب الفصاحة والبلاغة: مما يكسو الكلام حلة التزيين)، ولو صح ما قاله الشريف لقال السكاكي: (مما يكسو الكلام أعلى درجات التزيين)، لكن صاحب المفتاح لم يرد ما فهمه السيد الشريف ،وإنما جاء كلامه من باب التفنن فى القول.

ثم يأتي السيد الشريف بدليل ثان وهو قوله: (وفى قول السكاكي: (فلا علينا): دلالة صريحة على أن الوجوه المخصوصة لا مدخل لها فى الاحتراز عن الخطأ فى تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره.

وهذا ليس بدليل على خروج المحسنات من البلاغة لكن دليل على أنها ليست داخله فى علم المعاني أو علم البيان ، وإلا لما فصلها السكاكي عنهما، لكن هذا لا يمنع من أن الحسن الذي تحققه ذاتي، كما هو الحال فى علمي المعاني والبيان.

وقد وجد الشريف أن كلامه هذا منقوض بإدراج صاحب المفتاح نفسه بعض هذه الألوان عند التطبيق ، وعدم الفصل بين حسنها وحسن غيرها من فنون البلاغة، فراح يقول: (فذكره للمطابقة والتجنيس فى أثناء نكت الآية من حيث النظر فى علم المعاني على سبيل الاستطراد والتبعية).

(١) المصباح شرح المفتاح للسيد الشريف تح أ.د/ فريد النكلاوي دكتوراه ص ٩٣١.

والحق أنه ليس على سبيل الاستطراد والتبعية كما زعم السيد الشريف- وإنما هذه الوجوه عند السكاكي كغيرها من الفنون الأخرى عند التطبيق ،وهذا دليل صريح فى أن الحسن الذي تحققه ذاتي كما هو الشأن فى علمي المعاني والبيان.

ثانيا: موقعه من علم البديع فى (حاشيته على المطول):

يقول السيد الشريف فى حاشيته على المطول: "كأنه خص وضوح الدلالة بالخلو عن التعقيد المعنوي، مع أنه بحسب مفهومه يتناول الخلو عن التعقيد اللفظي- أيضا- ليكون إشارة إلى علم البيان ، كما أن رعاية المطابقة إشارة إلى علم المعاني، فيكون تنبيها على أن رتبة هذا الفن بعدهما ، فقولة: (بعد) ها هنا بمنزلة قوله وتتبعها وجوه أخر...) (١).

هذا ما قاله السيد الشريف فى حاشيته على المطول:أن رتبة علم البديع بعد رتبة المعاني والبيان.

ولا ندرى ماذا يقصد بقوله: (رتبة) ؟!

إن كان يعنى بها الترتيب فى الوضع فنحن لا نخالفه فى ذلك بل نؤكد على كلامه أن مكان البديع يأتي هكذا كما قرره السكاكي.

وإن كان يعنى:المنزلة فهيهات له ذلك، حيث إن علوم البلاغة تأتى حسب السياق ومقتضيات الأحوال، ومنزلتها تتوقف على ذلك عند التطبيق كما مر.

ولكن الأهم أن كلمات السيد الشريف هنا فى حاشيته كانت مقتضبة ، والملاحظ أنه عند شرحه كلام السكاكي فى المفتاح أطلق الكلام بأن المقصود بالوجوه فى كلام السكاكي هو علم البديع وبنى على ذلك أنها تابعة للبلاغة خارجة عما هو حسن ذاتي، هكذا يطلق الكلام مع أنه يشرح كلام السكاكي، وليس فى كلام صاحب المفتاح أي إشارة لهذا ، لكن العلامة الشريف قضى على البديع بجرة قلم.

أما فى حاشيته على المطول فمع أن كلام العلامة التفتازاني واضح ورأيه ظاهر إلا أننا نجد عبارة السيد الشريف مقتضبة فى ذلك.

(١) حاشية السيد على المطول – ط المكتبة الأزهرية ص ٤١٧.

والمهم أن الشريف الجرجاني وافق التفتازاني فيما ذهب إليه فى كون هذه المحسنات أو الوجوه هي (علم البديع)، وأنها تابعة للبلاغة، وأن حسنها عرضي.

(٩) عصام الدين الإسفراييني

العلامة العصام هو صاحب كتاب (الأطول) ألفه على التلخيص لكنه فى حقيقة الأمر يتتبع فيه آراء التفتازاني وانتقاداته للعلامة السكاكي والرد عليها ومناقشتها.

وللعلامة العصام كلام طيب حول علم البديع، وكعادته دوما لا يشرح كلام غيره فحسب، ولا يلتزم دوما بخطى من سبقه ،لكنه لا تمر الصفحات إلا ونجد له رأيا أو توجيها جديدا.

وعبارته فى ذلك هي: يقول بعد نقله كلام صاحب التلخيص وتعليق التفتازاني عليه:

"ولك أن تقول: (الوجوه التابعة لوجوه البلاغة) ربما يكون مقتضى الحال ، وتكون مظنة التباسها بالوجوه المبحوث عنها فى البديع.

فنبه على أن التحسين التابع للبلاغة بالوجوه المبحوث عنها إنما يكون بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة حتى لو لم يتم شيء منهما بدون هذه الوجوه لم يعد الكلام من المحسنات البديعية.

= وأما ما قيل من حمل الكلام على العهد بعيد عن المقام، فاللائق بمقام التعريف: حمل (وجوه تحسين الكلام) على مفهوم العام ، وإخراج ما سوى المحسنات من الوجوه الدالة فى البلاغة بقوله : (بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة) فقد رده التفتازاني بأنه كما يخرج عن الوجوه الداخلة فى رعاية المطابقة ووضوح الدلالة الوجوه البديعية يخرج بعض ما هو داخل فى البلاغة من الخلو عن التنافر ومخالفة القياس والغرابة وضعف التأليف فيبقى الجميع فى قوله: وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة.

ويمكن دفعه بأن هذا لو حمل (وضوح الدلالة) على ما هو المعتبر فى البيان ، أما لو حمل على مقتضى عموم البيان فما سوى الخلو عن التنافر له مدخل فى وضوح الدلالة، إذ المخالف لقياس اللغة، أو القاعدة النحوية، أو الغريب لا

يكون واضح الدلالة وإن توهم المُحش المحقق أنه لا ينافى الوضوح إلا الغرابة والتعقيد مطلقا، وأما التنافر فما يعلم بالحسن، ولا تعلق له بعلم، فلا يتوهم دخوله فى علم البديع، وبأنه لو حمل الكلام على الكلام الفصيح ، إذ ما سواه خارج عن درجة الاعتبار خرج عنه ما له دخل فى الفصاحة ، إذ ليس بها تحسين الكلام الفصيح ، بل جعل الكلام فصيحا.

فيعلم مما ذكر أنه لو قال: يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية البلاغة لكان أخصر وأوضح ، ويكون قوله: (بعد رعاية البلاغة) مخرجا لجميع الوجوه الداخلة فى بلاغة الكلام بلا تكلف .

= لكن يرد على هذا التعريف لو لم يعتبر العهد كما يرد على تعريفه أنه يدخل فى علم البديع حينئذ الوجوه المحسنة للكلام البليغ مما يبحث عنه فن علم العروض والقوافي، وغير ذلك من العلوم الأدبية، إذ بها يكتسب الكلام البليغ حسنا لا مرية فيه(١).

هذه هو حاصل كلام العصام فى (الأطول) وهو كلام له وجاهته وما لفت نظري هو مناقشة القضية من كافة الوجوه ، لكن علينا أن نقف أمام قوله:

"فنبه على أن التحسين التابع للبلاغة بالوجوه المبحوث عنها إنما يكون بعد رعاية المطابقة بوضوح الدلالة حتى لو لم يتم شيء بدون هذه الوجوه لم يعد الكلام من المحسنات البديعية".

فقد ربط بين تحسين الكلام الحاصل من هذه الوجوه وبين مقتضى الحال، وإن كان كلامه يوحى بمتابعته للتفتازاني فى بعض الوجوه، لكنه حاول إنصاف البديع والخروج به من دائرة التابع والمحسن العرضي كما مر.

(١٠) طاش كبرى زاده

العلامة عصام الدين المعروف بـ (طاش كبرى زادة) هو شارح كلام العلامة عضد الدين الإيجي فى كتابه (شرح الفوائد الغياثية) ،وقد كان العلامة طاش كبرى زادة واضحا فى رأيه حيث أخرج علم البديع من البلاغة وجعل حسنه عرضيا ، وعبارته فى ذلك هي:

(١) الأطول لعصام الدين الإسفراييني تحقيقا ودراسة تح د/عبد المنعم السيد الشحات- دكتوراه جـ٧ ص ٢٨٢٩.

"وبالحري أن نذيلها – أي: العلمين- بعدما عرفت أن البلاغة بمرجعيها والفصاحة بنوعيها مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين بشيء مشهور من علم البديع، وهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة.

وهذا العلم يفيد الكلام حسنا تابعا للبلاغة والفصاحة خارجا عما هو حسن ذاتي للكلام البليغ الفصيح ، فلا مدخل لها فى الاحتراز عن الخطأ فى تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره.

فلا يجوز حمل الاستحسان الذي ذكره السكاكي فى حد علم المعاني على هذا العلم، وأما ذكر المطابقة والتجنيس فى أثناء نكت علم المعاني فى الآية فعلى سبيل الاستطراد والتبعية "(١).

هذا هو رأى طاش كبرى زادة فى علم البديع ، وهو صريح فى إخراجه من البلاغة، حيث اعتبر أن تعريفه السابق قد جعله عرضيا، وأن حسنه خارج عما هو حسن ذاتي- على حد قوله.

والملاحظ فى كلام صاحب شرح الفوائد الغياثية هو تأثره الشديد بكلام الشريف الجرجاني فى شرحه لمفتاح السكاكي، ومن يراجع الكلاميين يدرك ذلك لأول وهلة.

(١) شرح الفوائد الغياثية – طاش كبرى زادة- مخطوط تحت رقم ٣٨٨٠ /١٩٢١م.لوحه رقم ٢٧٠.

الخاتمة والتوصيات

الحمد لله وأصلي وأسلم على خير خلق الله محمد صلى الله عليه وعلى آله ...

وبعد

فلقد قضيت وقتا طويلا قرأت فيه كتاب (مفتاح العلوم) للعلامة السكاكي ، وما دار حوله من نقد ، والشروح التي وضعت عليه ، وما اتهم به من جنايته على البلاغة والبلاغيين بتأليفه كتابه ، ومن إساءته لعلم البديع ،ووضعه فى ذيل البلاغة ،وجعل تحسينه عرضيا لا قيمة له ، ومن خلال قراءتي للكتاب يمكن لنا بعد ذلك أن نقول:

١- يمكن الجزم بأن فنون البديع التي استقر عليها القوم أخيرا لم تكن تندرج تحت علم البديع ، وأنها لم تكن مقصودة بذاتها ، حيث كان الغرض منها هو الاستشهاد لقضايا أخرى ، كقضية اللفظ والمعنى ، وقضية الإعجاز القرآني ، وغيرها من القضايا ، وإن كان هذا من الأمور البدهية إلا أنه لم يكن معلوما عند البعض.

٢- إن ما ظهر من تسمية بعض الفنون بالبديع كان أشمل وأعم من (علم البديع) الذي استقر عليه القوم.

٣- ظهرت بعض الكتب النقدية وكانت قريبة إلى التأليف البلاغي ، كالصناعتين لأبى هلال ،والعمدة لابن رشيق ،وسر الفصاحة لابن سنان ،وأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجاني ، ومع قربها كان الغرض الرئيس منها شيئا آخر غير التأليف البلاغي ، كما مر .

٤- حينما ظهر العلامة السكاكي بكتابه (مفتاح العلوم) لم يقسم البلاغة إلى معان وبيان وبديع -كما زعم البعض- لكنه كان واضحا فى تقسيمها إلى معان وبيان فحسب.

٥- لم يؤلف السكاكي كتابه من أجل البلاغة – كما يدعى البعض - لكنه كان كتابا من أجل الأدب والأديب ، وقد حاول التدرج فى تكوين شخصية الأديب ، فبدأ كتابه بالصوت فالحرف ثم الكلمة –

على طريقة القدماء ، وقد كان منهجه أشبه ما يكون بمنهج ابن سنان في سر الفصاحة- على ما مر-.

٦- لا أثر عند السكاكي لما يسمى بعلم البديع ، وإنما نجده يعثر على بعض الفنون المخصوصة – التي استخرجها من كتب السابقين عليه – والتي لا تندرج تحت علم المعاني والبيان ،فتحدث عنها في آخر القسم .

٧- لم يفرق العلامة السكاكي بين هذه الوجوه المخصوصة فى الحسن وبين غيرها من فنون المعاني والبيان ، ولا أثر لكون حسن هذه الوجوه عرضيا -كما زعم البعض .

٨- يمكن القول أن بداية التأليف البلاغي كانت عند ابن مالك صاحب (المصباح) وأنه أول من قسم البلاغة إلى علومها الثلاثة، وقسم البديع التقسيم المعروف.

٩- لقد أخطأ شراح المفتاح في فهم كلام السكاكي ، وأولوا كلامه على غير مراده ، وحملوا عباراته دلالات لا تتحملها ، كما مر .

١٠- لقد كان الخطيب القزويني البذرة الأولى التي حولت مسار البلاغة، وذلك بتعريفه علم البديع ، حيث جعل معرفته تتوقف على معرفة أخويه ، ومن ثم جعل الحسن المستفاد منه عرضيا ليس كأخويه ، وقد صار كل من أتى بعده على دربه ، ولم يشذ عنه سوى العلامة السبكي ،والعلامة العصام ،حيث أنصف كلا منهما علم البديع .

١١- أُوصى بتتبع المسائل البلاغية منذ أن كانت مجرد إشارة عند أسلافنا ، ومرورا بحالات النمو والزيادة ، حتى أصبحت فنا ، ودور كل عالم في الإضافة والتغيير ، وهذا لا يجعلنا نقع فيما وقعنا فيه من نسبة الجناية على البديع للعلامة السكاكي وهو منها بريء.

١٢- أخيرا ... أوصي بعدم الاعتماد على الكتب في النقل عن الآخرين ، وإنما علينا بالعودة إلى المصدر الأصلي وقراءته مرات ومرات .

(أهم مراجع البحث)

*ابن سنان الخفاجي وأثره في النقد والبلاغة دكتوراه- د/ عبد الحميد محمد حسن العبيسى ١٩٧١م الأزهر- كلية اللغة العربية- بالقاهرة .
* اتجاهات النقد الأدبي فى القرن الخامس الهجري د/ منصور عبد الرحمن.
* الأطول لعصام الدين الإسفراييني تحقيقا ودراسة -تح د/ عبد المنعم السيد الشحات- دكتوراه جـ٧.

* إعجاز القرآن ونظمه عند السكاكي – تأليف أستاذنا الأستاذ الدكتور فوزي السيد عبد ربه - ط١ ١٩٨٩م.
*الإيضاح في علوم البلاغة-الخطيب القزويني- تحقيق :الشيخ بهيج غزاوي- الناشر دار إحياء العلوم.
* البلاغة بين عهدين دكتور / محمد نايل - الفكر العربي سنة ١٩٩٤ .
* البديع - ابن المعتز ص ١٥٢ دار الجليل ت د/ محمد عبد المنعم خفاجي.
* البديع المصطلح والقيمة د/ عبد الواحد علام -دار الكتاب الجامعي ط٢، ١٩٩٦م.
* البلاغة عند السكاكي- دكتوراه أحمد مطلوب - ماجستير
* البيان العربي- دراسة فى تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى- د/ بدوى طبانة- ط٧ دار المنارة- ط ١٩٨٨م.
* البيان والتبيين للجاحظ - تحقيق فوزي عطوي-الناشر دار صعب - بيروت.
* تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان .
* تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها- تأليف أحمد مصطفى المراغي ١١١- ط مصطفى البابي الحلبي.
* تاريخ النقد الأدبي من القرن الخامس إلى العاشر الهجري ـ د/ محمد زغلول سلام -
ط / دار المعارف .

* تحقيق كتاب المصباح (شرح مفتاح العلوم) للسيد الشريف الجرجاني- مع العرض والتحليل والنقد – دكتوراه- لأستاذنا أ.د/ فريد محمد بدوى النكلاوى -ط ١٩٧٧م- إشراف أستاذنا أ.د/ كامل إمام الخولى.
* تحقيق كتاب (مفتاح العلوم) للدكتور أكرم عثمان - ط ١٩٨١م.
* تلخيص المفتاح للقز ويني- ط دار الكتب العلمية
* حاشية السيد على المطول – ط المكتبة الأزهرية
*خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسى
* دراسات فى فن البديع – أستاذنا الأستاذ الدكتور / عبد الغني بركة - ط سنة ١٩٨٣م
* ديوان زهير - ط الهيئة العامة للكتاب .
* سر الفصاحة- الأمير أبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي- المتوفى سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م-الناشر دار الكتب العلمية- سنة النشر ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م- مكان النشر بيروت.
*سر الفصاحة- الأمير أبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي- ت الدكتور / النبوي عبد الواحد شعلان .
*شرح التفتازاني على القسم الثالث من مفتاح العلوم- مخطوط- لوحة رقم ٣٠٢- تحت رقم ٢٣٥٢/ ٥٦٦٤٣ وقف / محمد حسين باشا.
*شرح تلخيص المفتاح للشيخ عبد الرحمن البرقوقي – ط١- سنة ١٩٠٤م- ١٣٢٢هـ .
* شرح الفوائد الغياثية – طاش كبرى زادة- مخطوط تحت رقم ٣٨٨٠ / ١٩٢١م
* شرح مفتاح العلوم المسمى (مفتاح المفتاح) للشيرازي ت / أ .د/ نزيه فراج دكتوراه سنه ١٩٩٧م
* الصبغ البديعي فى اللغة العربية د/ أحمد إبراهيم موسى .
* الصناعتين لأبى هلال العسكري ت/ د. مفيد قميحة -دار الكتب العلمية
* عروس الأفراح - تح د/ خليل إبراهيم.
* العمدة لابن رشيق – تحقيق / محمد محي الدين .

* الفوائد الغياثية – تح د/ عاشق حسين
*القزويني وشروح التلخيص – الدكتور / أحمد مطلوب – جامعة بغداد – ط١ – سنة ١٩٦٧هـ.
*المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر- أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧هـ- تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد- الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر- سنة النشر ١٩٩٥م- بيروت.
*المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر- المكتبة العصرية – بيروت ، ١٩٩٥
* المصباح فى المعاني والبيان والبديع- تح/ عبد الحميد هنداوى
* المطول ص ٤١٦ ط المكتبة الأزهرية للتراث
* مفتاح العلوم السكاكي – ط البابي الحلبي
* مفتاح تلخيص المفتاح للخلخالي- تح أ.د/ هاشم محمد هاشم
* الموازنة للآمدي – تحقيق / دكتور / عبد الله حمد محارب – ط الخانجي
* النكت فى إعجاز القرآن ـ ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن
* فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور د/ رجاء عيد.
* معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف سركيس .
*مفتاح العلوم للسكاكى ص ٢٢٧، ٢٢٨ – ط- مصطفى البابى الحلبى ١٩٩٠م .
*مفتاح المفتاح (شرح مفتاح العلوم) للشيرازى ت أستاذنا أ.د/ نزيه فراج- إشراف أ.د/ كامل الخولى ١٩٧٧م ،
* مفهوم المبالغة فى الفكر النقدي والبلاغي د/ أحمد عبد السيد الصاوي
* من وجوه تحسين الأساليب فى ضوء بديع القرآن أ.د/ محمد شادي
* نشأة البلاغة وأصول علم المعانى أ.د/ محمد إبراهيم عبد العزيز شادى ، ط ١٤١٧هـ.
* نقد الشعر ت -كمال مصطفى – ط٣ مكتبة الخانجى.

فهرس الموضوعات

مقدمة 727
الفصل الأول علم البديع قبل السكاكي 730
تقديم لا مفر منه 731
١- ابن المعتز وبديع المحدثين 732
ما السر فى تقسيم ابن المعتز أبواب كتابه ؟ 732
خلاصة القول 737
(٢) قدامة بن جعفر ونعوت الشعر 738
(٣) أبو هلال العسكري وصناعتي الشعر و النثر 742
(٤) ابن رشيق ومحاسن الشعر وآدابه ونقده 748
(٥) ابن سنان وسر الفصاحة 752
موقف ابن سنان الخفاجي من علمِ البديعِ 752
(٦) عبد القاهرة والنظم 761
خلاصة هذا الفصل 764
الفصل الثاني موقف السكاكي من علم البديع 765
غرضنا من هذا الفصل 766
علم البديع عند السكاكي
كلمات البلاغيين عن البديع عند السكاكي 770
أحمد أبو موسى فى كتابه (الصبغ البديعي) 770
الدكتور أحمد مطلوب 770

ويقول الأستاذ أحمد مصطفى المراغى 771
ويقول أستاذنا الدكتور بدوى طبانة 771
الدكتور / محمد نايل 772
تعليقنا على هذه الآراء 773
علم البديع وموقف السكاكي منه 777
السكاكي في منهجه لم يشذ عن سابقيه 779
علم البديع 784
أين علم البديع إذن؟! 785
سبب اتهام السكاكي بإهمال علم البديع 787
حاصل القول 790
الفصل الثالث علم البديع بعد السكاكي 791
تقديم ٧٩٢
اتهام المراغي للسكاكي وتفنيد كلامه والرد عليه 792
مناقشة الشيخ المراغي 792
كلام السكاكي وقراءة الشراح وأصحاب الحواشي له 794
(١) بدر الدين بن مالك المتوفى سنة (٦٨٦) 796
(٢) العلامة الشيرازي 799
(٣) الخطيب القزويني 802
(٤) (الخلخالي) 805

(٥) عضد الدين الإيجي 807
(٦) السبكي في (عروس الأفراح)
810
(٧) سعد الدين التفتازاني 811
أولا: موقفه من علم البديع في كتابه (شرح مفتاح العلوم)
811
ثانيا: موقف التفتازاني من علم البديع في شرحيه على التلخيص (المختصر والمطول)
813
(٨) السيد الشريف الجرجاني
814
أولا: موقفه من علم البديع في كتاب (المصباح شرح المفتاح)
814
ثانيا: موقعه من علم البديع في (حاشيته على المطول):
816
(٩) عصام الدين الإسفراييني
817
(١٠) طاش كبرى زاده
818
الخاتمة والتوصيات
820
(أهم مراجع البحث)
822
الموضوعات
825